الفصل الحادي والاربعون بعد المئة

المعربات

والاختلاط بين الأمم ، بمختلف وسائله ، ومن ذلك الاتصال التجاري، يؤدي الى حدوث تفاعل في اللغة ، فقد يولد هذا الاحتكاك ألفاظاً جديدة يطلقونها على أشياء لم يكن لأهل تلك اللغة علم بها ، وقد يضطر أصحابها الى استعمال المسميات الأجنبية كما هي ، أو بشيء من التبديل والتغيير ليناسب النطق بتلك اللغة . وقد وقع ما أقوله في كل اللغات ، ويقع الآن أيضاً ، وسيقع في المستقبل الى ما شاء الله ، لا استثناء في ذلك ، ولا تفاضل ، ولا امتياز . فاللغـــات كلها ، ومنها اللغة العربية في جاهليتها واسلاميتها ، تخضع لهذا الحكم والقانون .

وليس الأخذ والعطاء دليلاً على وجود نقص في لغة مـا ، أو وجود ضعف في تفكير المتكلمين بها . فكل اللغات مهما بلغت من النمو والكمال والسعة ، لا بد لها من أن تأخذ وأن تطور مدلول مفرداتها أو تضع مفردات جديدة لأمور لم تكن معروفة وموجودة عندها . ولا نعرف لغة ما من اللغات الميتة أو الحية ، انفردت بنفسها انفراداً تاماً ، فلم تأخذ شيئاً ولم تعط شيئاً .

والعربية بجميع لهجاتها وألسنتها مثل اللغات الأخرى، وفي جملتها اللغات السامية أخذت وأعطت ، قبل الاسلام وبعد الاسلام ، ولا تزال تأخـــذ وتعطي ما دام أصحاب اللسان العربي باقين في هذا الكون . والأخذ والعطـــاء ووضع مفردات جديدة في لغة ما ، هما من دلائل الحيوية ومن أمارات القوة والتكامل في تلك

اللغة . ومن دلائل هذا الأخذ والعطاء ، ما حدث في العصور الاسلامية : من أخذ وعطاء بين العربية واللغات الأعجمية ، فطعمت العربيةُ الفارسيةَ والتركية والرومية وغيرها بمادة غزيرة من الكلمات ، كما أخذت هي حاجتها منها . ومن دلائله أيضاً ما يقع اليوم من وضع المصطلحات لمعاني لا عهد للعربية بها من قبل كمخترعات تظهر دوماً ومعاني علمية ليس للعلماء عهد بها ، ولا بد من وضع ما يقابلها في العربية ، بوضع لفظ عربي ، أو تعريب المصطلح وتكييفه وفق النطق العربي إن كان من غير الممكن إخضاعه للمفردات العربية .

وقد يزعج هذا الرأي فريقاً من الناس يذهبون الى أن العربية لغة نقية صافية لم تتأثر بغيرها من اللغات ، فلم تأخذ من اللغات شيئاً ، ولم يدخل اليها لفظ أجنبي ، أو ان ما دخل اليها من دخيل معرب هو قليل ، وهم في منطقهم هذا محافظون متزمتون لا يعترفون بنظرية الأخذ والعطاء في اللغات . فإذا قلت لهم إن اللفظة الفلانية لفظة معربة وأصلها أعجمي ، أجابوك : ولكنها وردت في القرآن الكريم ، ووردت في شعر فلان ، وفلان من الشعراء الجاهليين . واذا قلت لهم : ولكن دخولها العربية كان قبل الاسلام بزمن ، وقبل ذلك الشاعر بزمن طويل ، وأن الجاهليين نسوا أصلها واستعملوها استعمال الألفاظ العربية ، فحكمها اذن حكم الألفاظ العربية في أيام ذلك الشاعر ، وعند نزول الوحي ، أجابوك أيضاً : وكيف نؤمن أنها معربة ، أفلا يجوز أن تكون عربية في الأصل ، وقد أخذها الأعاجم أنفسهم من العربية ، ومن أين لك الدليل على العكس ؟ واذا ذكرت لهم أن اللفظة الفلانية عبرانية في الأصل أو سريانية أو كلدانية ، قالوا : وكيف تثبت ذلك ، وهذه اللغات والعربية كلها من أصل واحد ودوحة واحدة، فلمَ تحكم بأنها من أصل سرياني أو عبراني أو كلداني أو غير ذلك ، ولا تحكم بأنها عربية أصيلة ، وان وجودها في تلك اللغات ، هو بسبب اشتراكها والعربية في الأصل السامي . فهي في العربية أصيلة اذن ، وهي في تلك اللغات أصيلة أيضاً وقديمة بسبب مشاركتها للعربية في الأصل السامي .

وقد فات مثل هؤلاء ان القدامى من العلماء لم يفتهم أمر هذه المعربات،فأشاروا اليها ، ومنهم جمهور أصحاب كتب التفاسير والحديث والمعجمات، وأن من العلماء من ألّف في هذا الموضوع ، فألّف أبو منصور المعروف بالجواليقي كتاباً في هذا

الباب دعاه : (المعرب من الكلام الأعجمي)[1] . ولم ينتقده مع ذلك علماء يومه، ولا من جاء بعده لإقدامه على تأليف كتابه هذا ، ولم يقل أحد انه كان جاهلاً أو متحاملاً على العربية ، مسيئاً اليها ، لأنه أنكر أصول الألفاظ المذكورة في مؤلفه ، فعدّها أعجمية معربة مع انها عربية أصيلة ، لا شك في عربيتها ولا شبهة . قال (الجاحظ) : « ألا ترى ان أهل المدينة لمّا نزل فيهم ناس من الفرس في قديم الدهر علقوا بألفاظ من ألفاظهم ، ولذلك يسمّون البطيخ الخربز، ويسمّون السميط الرزدق ، ويسمّون المصوص المزور ، ويسمّون الشطرنج الاشترنج ، في غير ذلك من الأسماء »[2] . ونجد في تفسير (الطبري) ، وهو من العلماء الثقات المحققين وفي تفاسير غيره من العلماء المدققين إشارات الى أصول ألفاظ وردت في كتاب الله ذكروا انها من المعربات،وقد نصوا على أصولها التي أخذت منها ، حسب علمهم واجتهادهم في ذلك الوقت ، لم يجدوا في ذلك بأساً ولا انتقاصاً لحرمة القرآن ، أو مساً به .

وفي القرآن — كما يذكر العلماء — أكثر من مائة لفظة معربة ، نصوا على أصولها حسب علمهم واجتهادهم واستفسارهم من الأعاجم ، وهي كلمات دخل بعضها العربية قبل الاسلام بعهد طويل لعدم وجود مثيل لها في لغة العرب،فأخرجتها العرب على أوزان لغتها وأجرتها في فصيحها ، فصارت بذلك عربية،وانما وردت في القرآن لأنها كانت قد تعربت وجرت عند العرب مجرى الفصيح ، ولم تكن لديهم ألفاظ غيرها[3] . وفي بعض هذه المعربات ألفاظ لم تكن مألوفة أو معروفة عند الوثنيين ، لأنها من ألفاظ أهل الديانات ، ونظراً لكونها تعبر عن أمور دينية ضرورية لا مثيل لها في العربية ، وكان من اللازم تعليم الناس اياها،لذلك وردت في القرآن .

وقد رجع العلماء أصول المعربات الواردة في القرآن الى لغات كانت شائعة آنذاك ومعروفة للعرب ، أخذها العرب منها باحتكاكهم بأهلها ، مثل اليونانية ، والفارسية ، والسريانية ، والعبرانية ، والحبشية ، والهندية ، والقبطية ، والنبطية،

---

١ المعرب من الكلام الاعجمي على حروف المعجم ، لابي منصور موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر الجواليقي ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، القاهرة ١٣٦١ .
٢ البيان والتبيين (١/١٩) .
٣ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (٢/٥٨) .

حتى ذهب (أبو ميسرة) ، وهو من العلماء التـابعين الى أن « في القرآن كل لسان » ، وروى مثله عن (سعيد بن جبير) ، و (وهب بن منبه)[1] . ولو راجعنا أقوال العلماء في هذه المعربات التي درسوها وتحدثوا عنها لوجدنا أنهم قد أخطأوا في تشخيص الكثير منها ، فلم يتمكنوا من الوقوف على أصولها ، لعـدم معرفة أكثر علماء العربية اللغات الأعجمية . نعم تمكن العارفون منهم بالفارسية من تشخيص المعربات عن الفارسية ، غير أن منهم من زاد عليها وبالغ فيها، فأدخل في المعرب عن الفارسية ما ليس من الفارسية بشيء . وأدخل ألفاظاً عربية أصيلة في طائفة المعربات،مع أنها عربية جاهلية ، وردت في نصوص المسند وفي النصوص الأخرى[2] ،وسبب ادخالهم لها ضمن المعربات ، هو عدم احاطتهم باللهجات العربية الجنوبية ، وباللهجات الجاهلية الأخرى . فتخبطوا في تعيين الأصول ، فترى بعض منهم يرجع معرباً الى أصل عبراني ، وتجد آخر يرجعه الى أصـل يوناني ، بينما يرجعه ثالث الى أصل حبشي ، وقع ذلك بسبب عدم وقوف العلماء عـلى اللغات الأجنبية واكتفائهم بالاستفسار من الأعاجم ، ممن لم يكن لهم علم بعلوم اللغات ، وإنما كانوا يعرفون الكلام بها ، إذ لم يكونوا من أصحاب التضلع والتخصص ، كما أن عصبية البعض منهم للسانهم دفعتهم أحيـاناً إلى الاختراع وصنع الأجوبة الكاذبة ، يضاف الى ذلك عامل الادعاء بالعلم والفهم ، مما يحمل صاحبه عـلى الوضع والكذب .

وبين الباحثين في المعربات الواردة في القرآن جدل في وجود المعرب فيه، منهم من قال بوجوده ، ومنهم من رد القول به ومنعه ، فقال : « انما أنزل القرآن بلسان عربي مبين ، فمن زعم ان فيه غير العربية ، فقد أعظـم القول ، ومن زعم ان كذا بالنبطية ، فقد أكبر القول » ، وقالوا : « ما ورد عن ابن عباس وغيره من تفسير ألفاظ من القرآن انها بالفارسية أو الحبشية أو النبطيـة أو نحو ذلك ، انما اتفق فيها توارد اللغات ، فتكلمت بها العرب والفرس والحبشة بلفظ واحد » . وبالغ بعضهم في نفي المعربات ، حتى قال : « كـل هذه الألفاظ عربية صرفة ، ولكن لغة العرب متسعة جداً ، ولا يبعـد أن تخفى عـلى الأكابر

---

١ السيوطي ، الاتقان في علوم القرآن (١٠٦/٢) ، (تحقيـق محمد أبو الفضـل ابراهيم) .

٢ راجع الاتقان (١٠٨/٢ وما بعدها) ، حيث تجد أمثلة عديدة على ما أقول .

الجلة ، وقد خفي على ابن عباس معنى فاطر وفاتح »[1] .

والذين ذهبوا الى وقوعه فيه ، يرون بأن الكلمات اليسيرة بغير العربية لا تخرجه عن كونه عربياً . وعلل بعضهم سبب وقوعه في القرآن بقوله : « إن حكمة وقوع هذه الألفاظ في القرآن ، انه حوى علوم الأولين والآخرين ، ونبأ كل شيء ، فلا بد أن تقع فيه الاشارة الى أنواع اللغات والألسن ليتم إحاطته بكل شيء ، فاختير له من كل لغة أعذبها وأخفها وأكثرها استعمالاً للعرب » ، « وأيضاً النبي صلى الله عليه وسلم ، مرسلٌ الى كل أمة ، وقد قال تعالى : وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ، فلا بد وأن يكون في الكتاب المبعوث به من لسان كل قوم ، وإن كان أصله بلغة قومه هو »[2] . وقال (ابن سلام) : « والصواب عندي مذهب فيه تصديق القولين جميعاً ، وذلك ان هذه الأحرف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء ، لكنها وقعت للعرب ، فعربتها بألسنتها وحولتها عن ألفاظ العجم الى ألفاظها ، فصارت عربية ، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب ، فمن قال انها عربية فهو صادق ، ومن قال أعجمية فصادق . ومال الى هذا القول الجواليقي وابن الجوزي وآخرون »[3] .

وقال (ابن النقيب) : « من خصائص القرآن على سائر كتب الله تعالى المُنزلة ، انها نزلت بلغة القوم الذين أنزلت عليهم ، ولم ينزل فيها شيء بلغة غيرهم ، والقرآن احتوى على جميع لغات العرب ، وأنزل فيه باغات غيرهم من الروم والفرس والحبشة شيء كثير »[4] . فهو من الذين يرون ان في القرآن كل لسان .

ولا يقوم جدل المانعين من وقوع المعرب في القرآن ، أو القائلين به على أساس اختلافهم في وقوع المعرب في العربية ، وانما انصب كل اختلافهم على وقوع المعرب في كتاب الله . فالمانعون يقولون — كما رأينا — ان الله يقول : « قرآناً عربياً »[5] و « ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا : لولا فصلت آياته أأعجمي

---

١ السيوطي ، الاتقان (٢/١٠٥ وما بعدها) .
٢ السيوطي ، الاتقان (٢/١٠٦ وما بعدها) .
٣ المصدر نفسه (٢/١٠٨) .
٤ السيوطي ، الاتقان (٢/١٠٦) .
٥ يوسف ، الاية ٢ .

وعربي »[1] ، فكل ما فيه هو عربي اذن ، والذين يجيزونه ، يقولون إن هذه الأحرف أصولها أعجمية ، لكنها وقعت للعرب ، فعربتها بألسنتها وحوّلتها عن ألفاظ العجم الى ألفاظها ، فصارت عربية ، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب ، فمن قال انها عربية فهو صادق ، ومن قال أعجمية صادق[2] . فالخلاف اذن خلاف عقائدي لا صلة له باللغة ، وبوقوع المعرب أو عدم وقوعه في العربية .

وهناك فريق آخر جاءته من المحدثين في الغالب ومن غير العرب ، ذهب مذهباً معاكساً لمذهب من ذكرت تماماً . تطرف في رأيه تطرفاً مسرفاً وبالغ في أحكامه مبالغة منكرة . رَجَع ألفاظاً عربية استعملها الجاهليون الى أصول أعجمية ، وادعى انها من الألفاظ المعربة عن السريانية أو اليونانية أو اللاتينية أو العبرانية أو الفارسية ، لمجرد ورودها أو ورود مشابه لها في تلك اللغات ، وحجته في ذلك أن الجاهليين أميون أعراب وثنيّون ، وأن الألفاظ التي رأوا عجمتها هي ألفاظ حضارة لها مدلولات دينية أو سياسية أو اجتماعية أو حرفية أو غير ذلك ، ولهذا لا يمكن أن تكون من صميم العربية ، بل لا بد أن تكون طارئة عليها دخيلة في الأصل ، ثم عربت . وفي هؤلاء المتعصب لجنسيته ، مثل أن يكون سريانياً أو يهودياً ، لهذا رجع تلك الألفاظ الى لغته لتعصبه لها ، والمتأثر بنظرية جهل الجاهليين وعدم وجود أي علم أو ثقافة لديهم ، والمتعصب على الاسلام ، لهذا رجع أكثر الألفاظ الحضارية الى النصرانية أو اليهودية أو الفارسية ، لإثبات أخذ الاسلام منها ، وتعلم الرسول ديانته من تلك الديانات .

أما البحث العلمي الخالص ، فهو ما كان بعيداً عن كل الميول والاتجاهات والنزعات ودوافع التعصب ، قائماً على الحقائق والوقائع وفكرة البحث عن الحق للتوصل اليه . فالرأيان في نظري باطلان ، بعيدان عن جادة العلم . وواجب الباحث في مثل هذه الأمور أن يتريث أولاً ، وألاّ يبت في قرار إلا اذا كان متأكداً من سلامة السبل التي سار عليها في الوصول الى قراره ، ولا سيما أن العربية والعبرانية والسريانية كلها من هذا الأصل الذي يطلق علماء الأجناس واللغات عليه :

---

١ فصلت ، ٤٤ .
٢ السيوطي ، الاتقان (١٠٨/٢) .

الأصل السامي ، وتشترك كلها أو أكثرها في كثير من الألفاظ ، والحكم بأن هذه أخذت من هذه أو تلك ، حكم فج ناقص إذ لم يستند الى موارد ونصوص مرتبة ترتيباً تأريخياً . ثم ان العربية ليست عربية واحدة ؛ فإن هناك ألسنة عربية أخرى، مثل عربيات اليمن ، وهي لهجات عربية قديمة ذات نصوص يعود تأريخ بعضها الى ما قبل الميلاد ، فلا يجوز التعميم بالاستناد الى لغة القرآن الكريم وحدها ، بل لا بد من تتبع ما جاء في اللغات العربية الأخرى . أضف الى ذلك أن أهل اليمن كانوا أصحاب حضارة وحضارتهم أرقى وأعلى درجة من حضارة بعض الساميين. ولذلك يدفعنا الواجب الى دراسة ما جاء في نصوصهم من ألفاظ ومسمّيات وآراء ومقارنتها بما جاء في النصوص الواردة في اللغات السامية الأخرى ، للحصول على رأي علمي في هذه الأمور . ولكننا مع ذلك نحن في وضع لا نتمكن فيه من البت في هذه الأمور ، لأن ما لدينا من نصوص جاهلية أغلبه من النوع الذي عثر عليه على ظاهر الأرض ، لأن الظروف لم تمكن العلماء حتى الآن من التنقيب تنقيباً علمياً عميقاً في باطن مواطن الآثار، لاستخراج المطمور من الكتابات والآثار الأخرى ، والغالب أن يكون المطمور ذا أهمية كبيرة ، وسيعين المؤرخين في كتابة الأجزاء المفقودة من تأريخ العرب قبل الاسلام . وقد يكون من بين ما عثر عليه ما هو أقدم من النصوص التي بين أيدينا . وعلى هذه النصوص ان رتبت ترتيباً زمنياً يوثق به ، يمكن أن يكون اعتمادنا في تثبيت المفردات، وفي تعيين زمن استعمالها في العربية وفي كونها عربية أصيلة أو معربة .

إن وجود المعربات دليل على اتصال الجاهليين بغيرهم ، واتصال غيرهم بهم. وعلى الروابط الفكرية التي كانت بين العرب وبقية الساميين،وبين العرب والشعوب الأخرى وجمعها وتصنيفها لذلك في مجموعات حسب الموضوعات يعطينا رأياً عن النواحي التي تأثر بها الجاهليون في أمور الحياة . غير ان هذا العمل عمل شاق ، ويجب أن يستند الى معجمات جامعة مرتبة ترتيباً تأريخياً ، تذكر الكلمة، ثم تذكر أصلها ومن أي أصل أخذت وفي أي زمن كان ذلك ، وأول من استعملها أو أقدم نص عربي وردت فيه ، وفي أي معنى استخدمت ، وهكذا . ولكننا لا نملك ، ويا للأسف ، مثل هذه المعجمات . وكل ما لدينا معجمات قديمة ، لم تنتبه لهذه الأمور ، ولم تميز الجاهلي من الاسلامي ، ولا اللفظ الوارد في عربية القرآن الكريم من اللفظ الوارد في اللهجات العربية الأخرى . فذكرت الألفاظ

الواردة في اللهجات العربية الأخرى على انها مرادفات ، ترد في عربيتنا على حين انها مسميات للشيء ذاته في اللغات العربية الأخرى .

والذين يقولون بعدم وقوع المعرب في كلام العرب ، كأنهم يتصورون ان العرب كانوا بمعزل عن العالم وانقطاع عن الناس . ولهذا لم يتأثروا بغيرهم ، ولم يؤثروا في غيرهم ، وأن عرقهم لذلك بقي صافياً نقياً سليماً ، لم تدنسه أعراق أعجمية ، ولم يمازج دمهم دمٌ غريب ، ولم تدخل لغتهم لفظة غريبة، بل بقيت نقية صافية على ما خلقها الله يوم خلق اللغات . وقد تكون في اللغات الأخرى ، كلمات دخيلة ، أما العربية فحاشاها من ذلك !

وهؤلاء لا يدرون انه قد كانت في سواحل جزيرة العرب قبل الاسلام مستوطنات يونانية ، نشأت في مواضع عديدة من سواحل البحر الأحمر وسواحل البحر العربي والخليج العربي ، وقد بقي أصحاب تلك المستوطنات في مستوطناتهم فلم يعودوا الى ديارهم ، ونسوا أصولهم وعاداتهم ، وصاروا عرباً مثل سائر العرب، يرجعون أنسابهم الى أصول عربية على عرف العرب والأعراب . وأن منهم من بقي عرقه الدساس يحنّ الى أصله، فقد ذكر المؤلفون اليونان ان بعض القبائل العربية الساكنة على السواحل ، كانوا يرحبون ببعض اليونان ، لاعتقادهم انهم يجمعهم واياهم صلب واحد .

يضاف الى ذلك الرقيق من الجنسين ، وقد كانت بلاد العرب تجلب عدداً كبيراً منه في كل عام ، تشتريه من أسواق العراق ومن أسواق بلاد الشأم ، وتوكل اليه القيام بأعمال مختلفة ، ولا سيما الأعمال التي تحتاج الى خبرة ومهارة فنية ودراية . ونحن نعلم أن العربي الصريح يأنف من الاشتغال بالحرف وزراعة الخضر ، ولذلك وُكِلَ الى هذا الرقيق أمر القيام بها ، فأدخل الى العربية كثيراً من الألفاظ الخاصة بالزراعة وبالحرف ، لم تكن معروفة في العربية ، كما سأتحدث عن ذلك فيما بعد .

يضاف الى ذلك أيضاً ، التجارة . فقد كان التجار من عرب وغرباء يتعاطونها في جزيرة العرب وفي خارجها ، يصدرون منها حاصلاتها وما تجمع فيها من سلع مستوردة من سواحل افريقية الشرقية والهند ، ويأتون اليها بما تحتاج اليه قبائلها وأهل مدرها وأهل إفريقية من بضائع مصنوعة أو منسوجة من حاصل الانبراطوريتين

الساسانية والرومية والأرضين المصاقبة لها . ومن الطبيعي أن يؤدي ذهاب التجار العرب الى أسواق العراق وبلاد الشأم ، واحتكاكهم بالفرس والروم ، الى الوقوف على أحوالهم والاتصال بهم والأخذ منهم والتأثر بثقافتهم وحضارتهم واقتباس ما يلائمهم منهم ؛ ومن الطبيعي أن يؤثر التجار الروم والفرس بعض التأثير في نفوس زملائهم العرب في الأماكن التي ولجوها من جزيرة العرب ، وأن ينقلوا اليهم شيئاً من آرائهم وأفكارهم وتجاربهم في الحياة،وأن يعطوهم شيئاً من مصطلحات لغتهم التي لا تعرفها العربية ، ومن الأسماء الخاصة بالتجارة وبالبضائع التي يأتون بها الى جزيرة العرب لبيعها في أسواقها .

وكان للمبشرين شأن مهم في نقل التراث اليوناني والإرمي الى جزيرة العرب في أيام الجاهلية ، وبجهادهم المضني المتواصل وعملهم المتوالي، دخلت النصرانية في أماكن متعددة قاصية من بلاد العرب،حتى تمكنوا من تنصير قبائل وأمراء ورؤساء قبائل ، بطريقتهم الخاصة في الاقناع والتأثير ، وبالتطبيب ، وبالتقرب الى ضعاف الحال من الناس.وقد اتبعوا في التبشير وفي إدارة المؤسسات التبشيرية النظم الإدارية والدينية المتبعة في الكنيسة ، فجعلوا (بيث قطرايا) ، أي (قَطَرَاً) الموضع المعروف اليوم على ساحل الخليج ، كرسياً لـ (مطرابوليطي) ، يقيم فيه ، ويشرف على إدارة خمسة أساقفة ، يقيمون في (ديرين) و (مشمهيغ) أي (سماهيج) وهجر وبلاد (مازون) و (حطا) المسماة (بيط أردشير)[1] ، وهي الخطّ .

وفي موضع مثل نجران غلبت النصرانية على أهله،نظمت الكنيسة شؤون المدينة، فتولى رئيسها الديني ، وهو بدرجة (أسقف) ، الأمور الدينية ، وتولى (السيد) أمور الحرب وادارة المسائل الخارجية المتعلقة بعلاقة نجران بغيرها، وتولى (العاقب) الأمور الداخلية ، وهم جميعاً يؤلفون معاً مجلس المدينة فيديرون معاً أمور الناس، وينظرون في كل ما يحدث بينهم من نزاع وخصومات . وهكذا نظمت العلاقات بين كنيسة المدينة وحكامها ، وانسجم الحكم بين الجماعتين .

وقد أدخل التبشير ألفاظاً يونانية وسريانية ترد في الديانة وفي الحياة اليومية الى

---

١ أدي شير ، تأريخ كلدو وآثور ، المجلد الثاني ، (المقدمة) .

اللغة العربية ، ولا سيما المصطلحات الخاصة بتنظيم الكنيسة وبالحياة النصرانية ، كما كان لبعض الشعراء الجاهليين يد في إدخال بعض المصطلحات النصرانية الى العربية، كالذي نجده في شعر (امرىء القيس) والأعشى وعدي بن زيد العبادي وغيرهم من كلمات ترد بكثرة عند النصارى ، نتيجة اتصالهم واحتكاكهم بهم ، فصارت بذلك تلك الكلمات من المعربات .

ويضاف الى من ذكرنا اليهود ، فقد كان لهـــم أثر في الجاهليين ، في يهود العربية الغربية خاصة ، أي في الحجاز ، في البقعة الممتدة من (يثرب) حتى بلاد الشأم ، وفي اليمن . فقـد سكن اليهود في هذه المواضع ، وبنوا لهم مستوطنات فيها ، واختلطوا بعربها ، واحترفوا الحرف كما ذكرت ذلك في الأجزاء المتقدمة من هذا الكتاب .

وقد كانت (مدراشات) اليهود في يثرب وفي المستوطنات اليهودية الأخرى تلقن اليهود أحكام دينهم ، وتعلم أطفالهم القراءة والكتابة . وقد قصدها العرب وجلسوا فيها يستمعون الى يهود . وقد شاهدها الرسول بعد هجرته الى المدينة ، وحضر جدلاً كان قد وقع بين جماعة من يهود ، كما حضرها أبو بكر ونفـــر آخرون من الصحابة . وكان أحبارهم يدرسون فيها ويفتون ، كما كانوا يقيمون الصلوات واحتفالات الأعياد في (الكنيس) . ومن هؤلاء اليهود ومن (مدراشاتهم) انتقلت الألفاظ العبرانية الى العربية فعربت ، وفي جملة ذلك لفظة (مدراس) ، و (سفر) ، و (توراة) ، و (تابوت) ، و (حبر) ، و (كاهن) وغير ذلك من مصطلحات ، لأكثرها صلة بشؤون الدين .

ان الحاجة ، هي التي تحمل الناس على الأخذ والعطاء ، وبها نفسر اقتباس العرب للمعربات . فأسماء بعض الآلات والأدوات والطرق الفنية والأنسجة الدقيقة المصنوعة من الحرير وأسمـــاء المأكولات النفيسة وأسماء النبات التي هي من أصل شمالي وبعض المشروبات وما شابـــه ذلك ، إنما دخلت العربية وعربت لأسباب عديدة ، أهمها أن الحياة في جزيرة العرب حياة عادية ، تكاد تجري على وتيرة واحدة ، فلم تساعد على ظهور الأمور المذكورة ، فاضطر الناس بحكم الحاجة الى أخذها من غيرهم واستيراد أشياء مادية وغير مادية من جيرانهم ، حتى في الأمور الفكرية والروحية ، مثل المعربات الدينية ، فإنها خضعت لحكم الحاجة ، فالنصارى

العرب استعملوا معربات من أصل سرياني ، لأنهم اضطروا الى استعمالها ، لأنها تعابير دينية لا وجود لها عند العرب الوثنيين أولاً ، ثم هي مصطلحات رسمية كنسية ، لم تتساهل الكنيسة في تغيير أسمائها ، ولهذا استعملها العرب على النحو المرسوم ، كما يستعمل الأعاجم المسلمون المصطلحات العربية ، لأنها مصطلحات اسلامية ليس لها مقابل في لغتهم ، أو لأنها مصطلحات دينية نحب المحافظة على تسميتها وان وجد لها مقابل في لغات الأعاجم .

وأكثر المعربات الجاهلية ، هي من أصل يرجع الى لغة بني إرم أو الى لغة الفرس ، ثم تليها المعربات المأخوذة من لغات أخرى مثل اليونانية والعبرانية واللاتينية والحبشية والقبطية ، وكثير من الألفاظ اليونانية إنما دخل الى العربية عن طريق السريانية ، فقد كان السريان قد أدخلوها في لغتهم ، لأنها لم تكن معروفة عندهم ، ومن لغتهم هذه تعلمها الجاهليون .

والمعربات السريانية الأصل ، هي في الزراعة في الغالب ، وفي التوقيت ، ثم في موضوعات دينية وصناعية وتجارية وفي أمور أخرى . أما المعربات عن الفارسية فهي في موضوعات زراعية كذلك وفي أسماء المأكول والملبوس وأمور اجتماعية . وأما المعربات عن العبرانية ، ففي أمور خاصة بسكناهم بين العرب وبأمور دينهم وشؤونهم . وأما المقتبس عن اليونانية فهو في أمور حرفية ، وفي مصطلحات دينية ومصطلحات زراعية ومصطلحات تستعمل في شؤون البحر وما شاكل ذلك .

وتفسير وجود المعربات السريانية والفارسية بنسبة تزيد على نسبة وجود المعربات الأخرى ، هو ان المتكلمين بلغة بني إرم كانوا مزارعين في الغالب، وكانوا على اتصال بالعرب ، وقد خالطهم العرب وعاشوا بينهم ، واقتبسوا منهم ، حتى انهم كتبوا بلسانهم ، ودخل الكثير منهم في دينهم ، دين النصرانية ، ولا سيما قبيل الاسلام . وقد كانت أحوالهم الاجتماعية مشابهة للأحوال الاجتماعية عند العرب ، ولا سيما عرب بلاد الشام والعراق . ووضع مثل هذا يؤدي بالطبع الى الاقتباس والأخذ والعطاء . وأما الفارسية ، فقد كان الفرس يحتلون بلاد العراق وكان لهم نفوذ على العربية الشرقية ، وقد استولوا على اليمن قبيل الاسلام، ولهم تجارة مع أهل مكة وأماكن أخرى ، وبحكم هذه الصلات دخلت في العربية ألفاظ فارسية وصارت في عداد المعربات .

ونحن اذا تتبعنا صورة توزع المعربات بين العرب ، نجد ان توزيعها يختلف باختلاف الأمكنة ، فهناك أمكنة تأثرت بالمعربات الفارسية بالدرجة الأولى، وهناك مواضع تأثرت بالمعربات السريانية في الأكثر ، وهناك أقاليم تأثرت بالمعربات عن اليونانية أو الحبشية بالدرجة الأولى. ثم نجد ظاهرة أخرى في كيفية توزع المعربات وظهورها ، هي ظاهرة الحاجة والظروف السائدة في مكان ما. فيمكننا اذن ارجاع تأثر لهجات العرب الجاهليين بالمؤثرات اللغوية الأعجمية اذن الى عاملين : عامل الاختلاط بالأعاجم عن طريق الجوار أو السكن معهم في موضع واحد ، واستخدامهم لهم ومجيء الأجانب من تجار ومبشرين اليهم ، وعامل الحاجة التي كانت تدفع الى أخذ أشياء غير معروفة في بلاد العرب ، فتدخل العربية بأسمائها الأعجمية ، فإذا انقضى زمن عليها ، تدخل في ضمن اللسان العربي وتعرب ، حتى ليخيل الى من لا يعرف أصلها انها عربية الأصل والنجار .

ولما تقدم نرى ان المعربات عن السريانية والفارسية هي أظهر وأبرز في لهجات عرب العراق من المعربات الأخرى،وان المعربات عن السريانية واليونانية – اللاتينية أبرز وأوضح في لغة عرب بلاد الشأم من المعربات المنقولة عن الفارسية أو الحبشية. وان المعربات عن الحبشية واللهجات الافريقية ، هي أوضح وأكثر ظهوراً في لهجات العرب الجنوبيين من المعربات الأخرى ، وذلك بسبب اختلاط العرب الجنوبيين بأهل الساحل الافريقي الشرقي ووجود جاليات افريقية في العربية الجنوبية وجاليات عربية جنوبية في السواحل الافريقية المقابلة منذ أيام ما قبل الميلاد ، فأدى هذا الاختلاط والتجاور الى الأخذ والعطاء في اللغة . كما نجد المعربات عن الهندية والفارسية والإرمية ظاهرة بارزة على ألسنة أهل الخليج ، لاتصالهم بالهند وبفارس وبالعراق .

وأما مثال ظهور المعربات بسبب الحاجة ، فهو ما نجده في لهجة أهل يثرب وما حولها من مؤثرات فارسية وسريانية في الزراعة بصورة خاصة وفي نواح أخرى من نواحي الحياة الاجتماعية ، فقد استعمل أهل المدينة ألفاظاً فارسية في لهجتهم ، بسبب حاجتهم وظروفهم . فأرضهم أرض خصبة ذات آبار ومياه ، ولما كانوا في حاجة الى أيدي عاملة لتشغيلها لاستغلال مواردها استعانوا بالرقيق،وكان معظم الرقيق الذي جيء به ، من رقيق العراق الذي يرجع الى أصل فارسي ، أو نبطي متأثر بالفارسية ، لرخص ثمنه بالنسبة الى رقيق الروم،ولفطنته ولمهارته في الحرف

بالنسبة لرقيق افريقية ، وعن طريق هذا الرقيق دخلت المعربات الفارسية والنبطية المستعملة في الزراعة وفي أمور أخرى عرف بها الفرس والنبط الى (يثرب)[1] .

أما أهل مكة ، فلم تظهر المعربات الزراعية عندهم ، لعدم وجود حاجة لهم اليها ، بل استخدموا معربات أخرى في الأمور التي كانوا بحاجة اليها ، والتي لم يكن لها وجود عندهم ، وقد دخلت اليهم من أماكن مختلفة ، كان لهم تعامل معها ، ومن الرقيق والتجار الغرباء الذين كانوا يعيشون بها .

ولبعض المحدثين بحوث في الدخيل من السريانية على العربية ، من جملتها بحث للمستشرق (فرنكل) Fränkel ، دعاه (الألفاظ الآرامية الدخيلة على العربية) Die Aramäischen Fremdwörter im Arabischen . وكتابه هذا هو أشهر كتاب ألّفه المستشرقون في هذا الباب . كما ان لآباء الكنيسة الشرقيين مؤلفات وبحوثاً في الألفاظ السريانية في العربية ، وضعوها بالعربية ، نشر بعضها في مجلة المشرق ، ونشر بعض آخر في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، ونشر بعضه في كتب، مثل كتاب : (غرائب اللغة العربية) ، تأليف الأب رفائيل نخلة اليسوعي ، وفيه باب خاص بالكلمات الدخيلة في العربية الداخلة فيها من الآرامية والعبرانية والفارسية واليونانية ومن التركية واللاتينية والايطالية والفرنسية ومن لغات أخرى[2] . وفي بعض هذه البحوث تسرع في الأحكام ، إذ فيها ألفاظ نسبت الى أصل سرياني ، وهي من الألفاظ الواردة في اللهجات العربية القديمة ، وفيها مما يرد في العربية وفي اللغات السامية الأخرى ، لأنه من المشترك الذي يرد في أصول الساميات .

وقد رأيت اختيار ألفاظ في الزراعة أو ألفاظ لها علاقة بها ، من القائمة التي أوردها (الأب رفائيل نخله اليسوعي) ، للألفاظ الآرامية الداخلة في العربية ، وذلك للوقوف عليها ، ولتكوين فكرة عنها ، وبعض هذه الألفاظ هو في رأيي مما استعمله العرب قبل الإسلام ، ووارد في النصوص الجاهلية ، فمن الصعب ارجاعه الى أصل آرامي من غير نص أو دليل منطقي مقبول ، وبعضه من النوع الوارد في العربية وله أصل عربي ، فلا يمكن أن يقال إنه من أصل آرامي ،

---

١ البيان والتبيين (١/ ١٠) .
٢ المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٦٠ .

لمجرد وجود مرادف له أو لفظ مقارب له ، وبعض آخر هو من الألفاظ التي ترد في كثير من اللغات السامية فلا يجوز تخصيصه بالسرياني ، وارجاع أخذ العرب له من هذا الأصل .

ومن اللهجات في الزراعة وما يتعلق بها وبالفواكه والحبوب والأزهار وما شاكل ذلك : (آس) وهو من أصل سرياني هو (اسو) ، و (أب) بمعنى ثمرة من (أبو) ، و (ارف) و (أرفى) من أصل سرياني كذلك بمعنى قسم الأرض وحددها ، ومن يمسح الأرض ويحددها . و (أكّار) بمعنى حرّاث ، أي من يحرث الأرض من أصل Akoro ، و (أنبوب) ، من (أبوبو) Aboubo بمعنى قصبة وأنبوب أجوف وما بين عقدتين من القصب ، و (اندر) بمعنى بيدر ، من (ادرو) Edro و (باسور) بمعنى عنب غير ناضج ، و (باكورة) ويراد بها أول الثمر من Bakorto و (بطيخ) ، أي البطيخ من fatiho ، و (بور) صفة للأرض من (بورو) bouro و (بيب)، بمعنى قناة ومجرى الماء الى الحوض من أصل (بيبو) bibo ، و (بيدر) من bayt-edro و (تبن) من (تبنو) ، و (تخم) بمعنى حدّ من أصل (تحومو) thoumo و (ترعة) ، بمعنى قناة عميقة من (ترعتو) و (توت) من (توتو) touto و (ثوم) من toumo و (جبن) من أصل goubno والجريب من gribo ، و (جرام) بمعنى نواة من أصل garmo ، و (الجرن) ويراد به حجر منقور للماء وغيره من Gourno ، و (الحب) بمعنى الجرة الكبيرة من (حبو) Houbo و (حمص) من (حمصو) Hemso و (حندقوق) من Handqouqo ، و (خبيص) ، بمعنى حلوى مخبوصة ، من طحين وسمن وعسل وأصلها (حبيصو) Habiso ، و (الخردل) من (حردلو) Hardlo ، و (خس) من (خسو) Haco ، و (الخوص) الذي يكون على السعف من (حوصو) Houso ، والخوخ من Houho و (الدبرة) البقعة المزروعة أي الحقل من (دبرو) dabro و (دبس) أي الدبس من debcho و(دبق) من debeq و (درس) ، كأن نقول درس الحنطة من drach و (دقلة) أي نخلة من deqlo و (رُب) وهو ما يخثر من عصير الثمار من أصل Raubo و (رحى) من Rahyo و (رمّان) من أصل Roumono و (ريحان) من Rihno و (زبن) بمعنى باع الثمر على شجره من Zaban بمعنى باع

و (زبون) بمعنى مشتري من Zobouno و (زفت) من أصل Zefto و (زق) من Zeqo و (زمـــارة) ، قصبة يزمر بها من Zamorto و (زيت) من Zayto و (زيتون) من Zaytouno و (سكة) مثل سكة المحراث من Sekto و (سكر) ما يسد به النهر ، من Chakro و (سلاء) أي شوك النخل من Salwo و (سمّاق) من أصل Sawmoqo ، وسنبل الحنطة من Seblo و(سنبل) بمعنى نبات طيب الرائحة من Sanboul و (شتلة) ما قلع من النبات ليغرس في مكان آخر من أصـــل Chetlo ، و (شرعوف) نبات وثمر من أصـــل Sour'afo و (شالم) و (شولم) و (شيلم) مـــن Chaylmo و (صعتر) من Setro و (صفصاف) من Safsofo و (مطمورة) ، وهي حفرة تحفر في الأرض يوسع أسفلها لحفظ الحبوب من matmourto و (عذق) أي عنقود عنب أو نخل من (عدق) daq' و (عفص) من afso' ، و (عقـــار) خمر ونبات يتداوى به ، وقد سمى العرب الخمر دواء من أصل egro' ، و (عنب) من enbo' ، و (عنقر) جذر القصب من eqoro' بمعنى جـذر و (عود) وهو العود الذي يتبخر به من ouda' و (غابة) من أصل obto' بمعنى غابة كثيرة الأشجار ، وغدير بمعنى نهر وبركة يتركها السيل من gadiro ،و(غرب) نوع من الحور من أصل arbo' ، و (فجل) من fouglo ، وفدان من أصل fadno ، و (فرث) ، من ferto و (الفروج) من Farougo ، و(الفرخ) من farahto و (فرع) بمعنى غصن من (فرعو) Fer'o ، و (فقح) مثل (فقح النبات) بمعنى أزهر من أصل (فقح) fqah ، و (فقاح النبات) أي زهره من أصل (فقحو) fagho ، و (فقد) ، بمعنى شراب من زبيب أو عسل من (فقودو) fqodo ، و (فُل) وهو زهر يشبه الياسمين من (فلو) Falo ، و (قثاء) من qtouto ، و (قش) من qecho ، و (قصر) وهو ما يبقى في الغربال من النفاية ، من أصل (قصرو) qisro أي قشرة الحنطة، و (القطران) وهو سائل زيتي يستخرج من بعض الأشجار من أصل (قطرون) qotron ، و (القفيز) وهو مكيال من (قفيزو) qfizo ، و (قفص) من (قفسو) qafso ، و (قلة) بمعنى جرة كبيرة من (قلتو) qoulto ، و (قمح) أي حنطة ، من (قمحو) qamho ، و (كاث) وهو ما ينبت ممـــا انتثر من الـزرع المحصود من koto ، و (كدّاس) الحب المحصود المجمـوع من

(كديخو) qdicho ، و (كرّ) بمعنى حمل ستة أوقار حمار ، أو ستون قفيزاً من (كورو) Kouro ، و (كرب) من أصل (كرب) Krab ، و (كُراث) من Karoto ، و (كرخ) بمعنى أجـرى وحول من (كرخ) Krak ، و (كرفس) من (كرفسو) ، Krafso و (كزبـرة) من (كوزبرتو) Kouzbarto ، و (كمثرى) من (كومترو) Komatro ، و (معين) نعت للماء الجاري على وجه الأرض من (مينو) m'ino ، و (نجر) من (نجر) Nagar ومنها النجار ، و (نشوق) من (نسكو) Nosko و (نطر) بمعنى حرس من (نطـر) Ntar ومنهـا الناطور أي الحارس ، و (نُطّار) وهو ما يكون على هيأة رجل ينصب بين الزرع لإخافة الطيور وإبعاد الحيوانات المضرة به من (نوطورو) notoro ، و (نيطل) بمعنى دلو من (نطلو) notlo ، ونعناع من mon'o ، و (نورج) سكة المحراث من (نورجو) Norgo ، و (نير) وهي خشبة معترضة في عنقي ثورين يجران محراثاً من (نيرو) Niro ، و (هرطمان) من qourtomo ، وبل ووابل بمعنى المطر الشديد من (يبـل) Yibal ، و (ورد) من (وردو) Wardo ، و (وسق) بمعنى حمل بعير من (وسقو) Wasqo ، و (يتوع) ، كل نبات له لبن ، أي سائل أبيض في داخله يشبه اللبن من (يتوعو) Yatou'o [1] .

وقد وردت لفظة (الأبّ) في القرآن الكريم: « وفاكهة وأبّا . متاعاً لكم»[2]. وقد ذكر ان (عمر) قال : « قد عرفنا الفاكهة فما الأبّ ؟ قال : لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف »[3] ، وقد اختلف المفسرون في المراد منها ، مما يدل على أن اللفظة لم تكن معروفـة عندهم معرفة واضحة ، وفي كلام عمر : « إن هذا لهو التكلف » ، أو قوله : « ما كلفنا أو ما أمرنا بهذا »[4] دلالـة على عدم وضوح معناها عنده وعند الناس . وهي بمعنى (ثمرة) في الإرمية من

---

١ غرائب اللغة (من الصفحة ١٧٢ الى الصفحة ٢١٠) .

٢ عبس ، الاية ٣١ ،

٣ تفسير الطبري (٣٠/٣٨) ، تفسير الالوسي (٣٠/٤٧)، تفسير ابن كثير (٤/٤٧٢ وما بعدها) .

٤ تاج العروس (١/١٤٢) ، (أب) .

Ebo ، وقد ذهب العلماء الى أن (الأبّ) ما تنبت الأرض للأنعام والماشية[1]، فهي في معنى آخر ، يخص العشب والكلأ وما تنبته الأرض ليعلفه الحيوان في رأي غالبية العلماء ، غير المعنى الوارد لها في السريانية .

وأما (الأرف) ، فبمعنى تقسيم الأرض وتحديدها ، ويقال لمن يمسح الأرض ويعين حدودها (ارفو) Arfo في الارمية[2] ، وقد ذكر علماء اللغة أن الارف الحدود بين الأرضين ، أو معالم الحدود بين الأرضين . « وفي حديث عثمان رضي الله عنه ، الارف تقطع الشفعة ، وهي المعالم والحدود . هذا كلام أهل الحجاز ، وكانوا لا يرون الشفعة للجار »[3] .

وأما (الأكار) فيذكر علماء اللغة أنها من أصل (أكر) ، بمعنى (حفر)، والأكار بمعنى الحفّار والحرّاث والزارع . ومن ذلك حديث « أبي جهل : فلو غير أكار قتلني » ، أراد به احتقاره وانتقاصه[4] . وتقابل هذه اللفظة لفظة (اكورو) Akoro في الأرمية التي هي « اكار »[5] .

وبين الألفاظ التي ذكرتها ألفاظ لا يوجد دليل على انها معربة من أصل إرمي لأننا نجد ان لها جذراً عربياً ، وهي ليست من المسميات التي لم يعرفها العرب حتى نقول انها استوردت من الخارج ، أو ان الحاجة حملت العرب على تعلمها من الرقيق الذي كان عندهم أو من المبشرين أو التجار الغرباء .

وأما المعرب عن الفارسية مما يخص الزراعه ، فأكثره في أسماء أثمار أو أزهار أو روائح وعطور ، مثل (الخربز) بمعنى البطيخ ، من أصل (خربوزة) . وفي الحديث عن أنس قال : « رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يجمع بين الخربز والرطب » . وفي حديث عن عائشة : « يأكل البطيخ بالرطب »[6] . و (السيسنبر)

---

١ الموارد المذكورة .
٢ غرائب اللغة (١٧٢) .
٣ تاج العروس (٣٩/٦) ، (أرف) .
٤ تاجر العروس (١٧/٣) ، (اكر) .
٥ غرائب اللغة (١٧٣) .
٦ الجواليقي : المعرب (ص ١٣٧) ، فتح الباري (٤٩٦/٩) ، عون المعبود (٤٢٧/٣ وما بعدها) .

نوع من الريحان[1] ، و (الجل) بمعنى الورد[2] ، و (الجلاب) أي ماء الورد . وقد وردت اللفظة في حديث عائشة عن الرسول[3] . وذلك دليل على ان اللفظة كانت معروفة قبل أيام الرسول . ويلاحظ ان لفظة (بطيخ) هي من الألفاظ المعربة كذلك ، عربت من أصل (فطيخو) بلغة بني إرم[4] .

وقليل منه ما يخص آلات الزراعة أو الأرض ، مثل (بستان) والجمع (بساتين)[5] ، وذلك لأن غالبية الذين كانوا يفلحون الأرض ويزرعونها في العراق وفي بلاد الشأم ، هم من بني إرم أو من المتكلمين بلغتهم ، وباحتكاك العرب بهم تعلموا أسماء الآلات والأدوات وطرق حرث الأرض وزرعها ، وأسماء كثير من الزروع ومقاييس الأرض وطرق الاستفادة من الأرض ، فدخلت الى العربية . أما الفرس في العراق ، فلم يكونوا يباشرون زراعة الأرض وفلاحتها في العراق، وانما كان (مرازبتهم) وأثرياؤهم يمتلكون الأرضين الواسعة ، ويسخرون أهل البلاد في استغلالها لهم ، ولهذا لم تترك لغتهم أثراً كبيراً يشبه الأثر (الإرمي) من ناحية الزراعة في العربية .

أما المعربات في الزراعة عن اليونانية ، فأقل عدداً ، إذ لم يكن العرب على اتصال مباشر بالمزارعين اليونان ، لهذا لم يأخذوا عنهم كثيراً . والمعروف من المعربات في هذا الباب هو في أسماء ثمر نبات أو بذور ، أو ما يتعلق بحاصل عنب ، مثل الخمور ، فقد كان أهل الحجاز يستوردون الخمور من بلاد الشأم، وقد تعلمها أهل هذه البلاد من الروم بأسمائها اليونانية . ولما أخذها العرب من بلاد الشأم ، حرفوا الأسماء بعض التحريف لتلائم المنطق العربي .

ومن هذه المعربات : (الاسفنط) : وهي أجود الخمر المطيب من عصير العنب ، من أصل (افستين) Apsinthion ، كان الخمر يطيب به[6] . و (خندروس) ، ويراد بها نوع حنطة ، أو حنطة مجروشة من أصل Khandhros[7] ، و (خندريس) ويراد بها خمر معتقة ، ونعت لخمر مصنوعة من

---

١ الجواليقي (ص ٨٠ ، ١٠٥) ، غرائب اللغة (ص ٢٣٥) .
٢ الجواليقي (ص ١١٥) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٣) .
٣ الجواليقي (ص ١٠٦) فتح الباري ، لابن حجر (١/٣١٧) ، المزهر (١/٢٧٦) .
٤ غرائب اللغة (١٧٤) .
٥ الجواليقي (ص ٥٣) .
٦ الجواليقي (ص ١٨) ، غرائب اللغة (ص ٢٥٢) .
٧ غرائب اللغة (ص ٢٥٧) ، « وأخبرنا عن يعقوب أن « الخندرس » : القديمة . يقال : حنطة خندريس ، أي قديمة » ، الجواليقي (ص ١٢٥) .

الكرم اسمه Kantharios[1] . و (زنجبيل) ، وهي من أصل zinguiveri . ومن الألفاظ الواردة في القرآن الكريم . وقد ذكرت في شعر منسوب الى الأعشى[2] . و (القرنفل) ، من أصل Kariofillon[3] . و (كافور) من Kafoura . وفي السريانية qafouro[4] . و (المسطار) ، ويراد بها الخمر التي اعتصرت من أبكار العنب حديثاً[5] ، وأصلها (مسطس) Moustos[6] . و (نرجس) من أصل Narkisos[7] .

وبلاد الشأم أكثر شهرة من العراق في الأعناب ، وهي مادة صالحة لصنع أنواع متعددة من الخمور . أما أهل العراق ، فقد استخرجوا خمرهم من التمر، فلم يعرف لهذا السبب بتنويع الخمور . وقد استغل سكان جزيرة العرب التمور أيضاً لاستخراج الخمور منها ، وذلك في الأماكن التي تكثر فيها النخيل ، وتقل أشجار الكروم . ولاتصال الحجاز ببلاد الشأم بالقوافل الكبيرة ، كانت الخمور من أهم السلع التي تستوردها القوافل من تلك البلاد .

ومن الألفاظ الآرامية التي دخلت في العربية ، ولها معان دينية لفظة (ابل) بمعنى تنسك من «ébal» ، و (تأبل) بمعنى (حزن) من «étébal» ، و (أبيل) بمعنى راهب من (أبيلو) «abilo» الإرمي بمعنى ناسك وراهب[8] . وقد جعلها (الجواليقي) فارسية الأصل[9] ، وهو خطأ منه . و (الباعوث) ، صلاة لثاني عيد الفصح في بعض الطوائف من أصل «bo'outo» بمعنى صلاة وطلب[10] ؛ و (برخ) بمعنى زيادة ونماء من (برختو) bourhto بمعنى بركة وعطية[11] . و (البيعة) من (بيعتو) Bi'to[12] . و (الدنح) ، ويراد بها عيد الغطاس ،

---

١ غرائب اللغة (ص ٢٥٧) .
٢ الجواليقي (ص ١٧٤) ، غرائب اللغة (ص ٢٥٩) .
٣ غرائب اللغة (ص ٢٦٥) .
٤ غرائب اللغة (ص ٢٦٧) ، الجواليقي (ص ٢٨٥ وما بعدها) .
٥ الجواليقي (ص ٣٢١) .
٦ غرائب اللغة (ص ٢٦٩) .
٧ غرائب اللغة (ص ٢٧١) .
٨ غرائب اللغة (ص ١٧٢) .
٩ الجواليقي (ص ٣٠) .
١٠ الجواليقي (ص ٥٧) ، غرائب اللغة (ص ١٧٣) .
١١ الجواليقي (ص ٨١ وما بعدها) ، وغرائب اللغة (ص ١٧٤) .
١٢ الجواليقي (٨١) ، غرائب اللغة (ص ١٧٥) .

من أصل (دنحو) denho [1] . و (دير) أي بيت الرهبان ، من أصل دار [2] . و (ديراني) نسبة الى (دير) ، من أصل Dayronoyo [3] . و (ربّاني) ، بمعنى عالم بشريعة اليهود ، وحاخام أي معلم من أصل (ربونو) Rabono [4] . و (روح القدس) من (روح قدشو) Rouhqoudcho [5] . و (مزمور) من (مزمورو) Mazmouro [6] . و (سُلاّق) عيد صعود السيد المسيح، من Souloqo أي صعود [7] . و (صلاة) من (صلوتو) Slouto [8] . و (قس) (قسيس) من (قشيشو) Qachicho [9] . و (القوس) ويراد بها الصومعة ، من أصل Kaucho ، بمعنى عزلة [10] . و (ناقوس) من أصل noqoucho [11] .

وهناك ألفاظ أخرى لها معان دينية ، لم تكن شائعة معروفة إلا بين النصارى، لذلك لم أرَ حاجة الى الاشارة اليها ، ثم إن من الصعب البرهنة على انها كانت مستعملة عند النصارى الجاهليين .

وبعض الألفاظ المذكورة معروف ، وقد ذكر في الحديث ، وهذا مما يدل على شيوعه عند أهل الحجاز عند ظهور الاسلام ، وبعضه مما ورد في القرآن الكريم من آيات تعرضت للنصرانية في ذلك العهد .

وباتصال العرب باليهود في الحجاز ، دخلت في العربية ألفاظ ومصطلحات دينية ، عُربت ، مثل : (آمين) من أصل (امن) [12] ، و (اسرائيل) و (اسرائين) من (يسرائيل) (ي س ر ا ل) [13] ، و(تابوت) (ت ب ه) [14]

---

١ الجواليقي (ص ١٤٤) ، الاثار الباقية (ص ٢٩٢ وما بعدها) ، غرائب اللغة (ص ١٨١) .
٢ الجواليقي (ص ١٨٧) ، غرائب اللغة (ص ١٨٢) .
٣ غرائب اللغة (ص ١٨٢) .
٤ غرائب اللغة (ص ١٨٢) .
٥ غرائب اللغة (ص ١٨٤) .
٦ غرائب اللغة (ص ١٨٥) .
٧ الجواليقي (ص ١٩٦) ، غرائب اللغة (ص ١٨٨) .
٨ غرائب اللغة (ص ١٩٣) .
٩ غرائب اللغة (ص ٢٠١) .
١٠ الجواليقي (ص ٢٧٨) ، غرائب اللغة (ص ٢٠٢) .
١١ الجواليقي (ص ٣٣٩) ، غرائب اللغة (ص ٢٠٨) .
١٢ غرائب اللغة (ص ٢١١) .
١٣ الجواليقي (ص ١٣ وما بعدها) ، غرائب اللغة (ص ٢١١) .
١٤ غرائب اللغة (ص ٢١١) .

بمعنى صندوق خشب و (تلمود)[1] و (توراة) من (تورا) بمعنى تعليم وشريعة[2] ، و (جهنم) من (جي هنم) ، بمعنى وادي هنم ، وهو جنوب أورشليم ، أي القدس ، وقد كثر فيه قبل الميلاد إحراق الأطفال تضحية لإله العمونيين[3] . و (حبر) من (حبر) (ح ب ر) بمعنى (الرفيق) في الأصل، ثم خصصت[4] بعالم . و (اسرافيل) من (سرافيم) (س ر ف ي م) ، ملك من الملائكة الكبار[5] . و (سبت) اسم يوم ، من (شبث) بمعنى يوم الراحة، واستراح[6] . و (سبط) ، قبيلة من قبائل اليهود الاثني عشر ، من (شبط)[7]، و (مدراس) ، بمعنى معهد تدرس فيه التوراة ، من (مدرش)، (مدراش)، أي بحث وشرح نص[8] .

ولفظة (نبي) (نابى) Nabi المستعملة في عربيتنا من الألفاظ الواردة في التوراة ، وردت (٣٠٠) مرة في مواضع مختلفة منها[9] . وترد في لغة بني إرم أيضاً ، حيث وردت على هذه الصورة : Nbiyo [10] . وقد ذكر علماء اللغة انها من المعربات[11] .

وأخذت العربية من العبرانية ألفاظاً قليلة ذات صلة بالحرف ، مثل (تابوت) بمعنى صندوق من (تبا) Teba ، ويراد بها معنى صندوق في العبرانية[12] . و (فطيس) من (بطيش) Pattich بمعنى مطرقة[13] . و (قدوم) من (قردم) (قردوم) qardom بمعنى فأس ، و (كرزن) من (كرزن) بمعنى فأس كبيرة[14] .

---

١ غرائب اللغة (ص ٢١١) .
٢ غرائب اللغة (ص ٢١١) .
٣ الجواليقي (ص ١٠٧) ، غرائب اللغة (ص ٢١١) .
٤ ولفنسون ، اليهود في جزيرة العرب (ص ٢٠) .
٥ الجواليقي (ص ٨) ، غرائب اللغة (ص ٢١٢) .
٦ غرائب اللغة (ص ٢١٢) .
٧ غرائب اللغة (ص ٢١٢) .
٨ غرائب اللغة (ص ٢١٣) .
٩ Hastings, p. 767.
١٠ غرائب اللغة (٢٠٦) .
١١ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١/٢٠٥) .
١٢ غرائب اللغة (ص ٢١١) .
١٣ غرائب اللغة (ص ٢١٢) .
١٤ المصدر نفسه .

وقد احترف اليهود الحدادة والصياغة والنجارة في الحجاز ، وتكسبوا منها ، ورآهم الجاهليون ، وهم يعملون بآلاتهم ، فتعلموا منهم أسماء الآلات المذكورة وغيرها ، واستعملوها على النحو المذكور .

ويلاحظ ان الباحثين في المعربات من المستشرقين والشرقيين ، رجعوا أصول ألفاظ يهودية الى السريانية ، وهي يهودية في الأصل ، وقد أخذتها السريانية من العبرانية بواسطة النصرانية ، بدليل ورودها في اليهودية قبل ظهور النصرانية بزمن.

أما المجوسية ، ديانة الفرس ، فلم تترك أثراً يذكر في العربية من ناحية المعربات ذات المعاني الدينية ، لقلة اتصال العرب بها، وعدم اهتمام المجوس بنشر دينهم ، وقلة عددهم في جزيرة العرب . ولهذا كانت أكثر الألفاظ الدينية التي عرفها الجاهليون ، قد دخلت فيهم من اليهودية والنصرانية،بسبب اتصال اليهودية والنصرانية بالجاهليين اتصالاً مباشراً .

ولفظة (المجوسية) نفسها هي من الألفاظ المعربة ، فهي من أصل Magush في الفارسية القديمة ، و Mugh في الفارسية الحديثة ، و Maghos في اليونانية ، وقد انتقلت من الإرمية الى العربية[1] . وفي الحديث : « كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يمجسانه ، أي يعلمانه دين المجوسية »[2] . وذكر أن اللفظة قد وردت في بيت شعر جاهليّ هو :

أحار أريكَ برقاً هبّ وهناً كنار مجوس تستعر استعارا

يقال إن صدر البيت لامرىء القيس وعجزه للتوأم اليشكري ، « قال أبو عمرو ابن العلاء : كان امرؤ القيس معَنّا عريضاً ينازع كل من قال إنه شاعر،فنازع التوأم اليشكري ، فقال له : إن كنت شاعراً فلطّ أنصاف ما أقول وأجزها ، فقال : نعم ، فقال امرؤ القيس :

أصاح أريك برقاً هب وهناً

فقال التوأم :

كنار مجوس تستعر استعارا

---

١ Shorter Ency., p. 298. غرائب اللغة (٢٦٩) .

٢ تاج العروس (٤/٢٤٥) ، (مجس) .

فقال أمرؤ القيس :

أرِقت له ونام أبو شريح

فقال التوأم :

إذا ما قلتُ قد هدأ استطارا »

الى آخر الشعر[1] . وإذا صح هـذا التمليط ، تكون هذه اللفظة قد وردت فيه لأول مرة في شعر جاهلي .

ومن الألفاظ التي لها صلة بالمجوسية لفظة (موبذ) و (موبذان) ، بمعنى الرئيس الديني للمجوس . من أصل (موبد) ، بمعنى كاهن ورجل دين عند الفرس القدماء[2] .

وفي باب المأكولات والمشروبات وما يتعلق بهما ، نجد المعربات عن الفارسية أبرز وأظهر من المعربات المأخوذة من لغة بني إرم ، او من لغة الروم واللغات الأعجمية الأخرى . فـ (الباذق) ، وهو ضرب من الأشربة ، من أصل فارسي ، هو (باذه) (باده) بمعنى خمر ، أي شراب مسكر[3] . ولفظة (باطية) ويراد بها إناء زجاج للشراب ، من أصل (باديه) أي جرة[4] . و (البالغاء) ، بمعنى الأكارع من أصل (پايها) بمعنى أرجل[5] . و (الجلاب) أي مـاء الورد ، من أصل (كُلْ آب) ، و (كُلْ) بمعنى ورد ، و(آب) بمعنى ماء[6] . و(الجوزينج) (الجوزينق) من الحـلاوات ، وتعمل من الجوز . من أصل (كوزينة)[7] . و (الخربز) البطيخ ، من أصل (خربوزة)[8] و (الخشكنان)[9] ، و(الخشكار) ،

---

١ اللسان (٦/٢١٣ وما بعدها) ، (مجس) .

٢ غرائب اللغة (٢٤٦) .

٣ المعرب ، للجواليقي (ص ٨١) ، غرائب اللغة (ص ٢١٧) ، الخفاجي ، شفـاء الغليل وما دخل في كلام العرب من الدخيل .

٤ المعرب (ص ٨٣) ، غرائب اللغة (ص ٢١٨) ، الدراسات الادبية ، ١٩٥٣ ، الجزء (٢ و٣) ، (ص ٩) ، التبادل اللغوي بين العربية والفارسية ، لجلال الديـن همايوني ، السنة الثانية ١٩٦١ م ، (ص ٣٧٥) ، (صور من التعريب ونقـل المعاني من الفارسية الى العربية) .

٥ المعرب (ص ٥١) ، غرائب اللغة (ص ٢١٨) .

٦ المعرب (ص ١٠٦) ، ابن حجر ، الفتح (١/٣١٧) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٣) .

٧ المعرب (ص ٩٩) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٤) .

٨ المعرب (ص ١٣٧) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٥) .

٩ المعرب (ص ١٣٤) .

أي خبز مصنوع من قشر الحنطة والشعير ، من أصل (خشك) ، بمعنى يابس وآرد ، بمعنى طحين[1] . و (خوان) بمعنى مائدة[2] ، و (دوق) بمعنى لبن استخرج زبده ، من أصل (دوغ) ، بمعنى لبن حامض[3] . و (فالوذج) (الفالوذ) (الفالوذة) ، نوع من الحلواء ، من أصل (فالوده) (پولاد)[4] . ويذكر أهل الأخبار : أن عبدالله بن جدعان كان يطعم العرب هـذا الطعام ، فمدح[5] . و (القند) ، السكر[6] ، و (الكعك) ، من أصل (كاك)[7] . و (اللوزينج) نوع من الحلواء ، من أصل (لوزينه)[8] ، و (الأنبار) أهراء الطعام ، واحدها (نَبْرٌ) ، و (أنابير) جمع الجمع[9] ، من أصل (انباشتن) بمعنى خزن[10] . و (الدّرمك) ، وهو الدقيق الأبيض ، أي لبـاب الدقيق ، و (الجردق) ، و (السميذ)[11] .

و (السكباج) ، وهو لحم يطبخ بخـل ، من أصل (سركه باچة) ، و (السكبينج) دواء ، وصمغ شجرة بفارس ، و (السكرجة) قصاع يؤكل فيها صغار[12] ، و (الزيرباج) ، و (الاسفيداج) ، و (الطباهج) ، و (النفرينج) من ألوان الطبيخ[13] .

وسبب ذلك ان الفرس كانوا أرفع مستوى من بني إرم في الحياة الاجتماعية ، وأكثر تقدماً في الحياة البيتية منهم ، فتفننوا في المأكل والملبس،وتنوعوا في المطبخ وافتنّوا في تنويع الأكل ، وأوجدوا لكل طعام اسماً ، لم تعرفه لغة بني إرم ،

---

١ غرائب اللغة (ص ٢٢٦) .
٢ المعرب (ص ١٢٩) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٦) ، الخفاجي (ص ٨٧ وما بعدها) .
٣ المعرب (ص ١٥٥) ،غرائب اللغة (ص ٢٢٩) .
٤ المعرب (ص ٢٤٧) ، غرائب اللغة (ص ٢٣٩) .
٥ مجمع الامثال (٢/٧٣) .
٦ المعرب (ص ٢٦١) ، غرائب اللغة (ص ٢٤١) .
٧ المعرب (ص ٢٩٧) ، غرائب اللغة (ص ٢٤٣) .
٨ المعرب (ص ٢٩٩) ، غرائب اللغة (ص ٢٤٤) .
٩ المعرب (ص ٢٠) ، غرائب اللغة (ص ٢١٧) .
١٠ غرائب اللغة (ص ٢١٧) .
١١ المزهر (١/ ٢٧٥) .
١٢ تاج العروس (٢/٥٩) ، (سكبج) .
١٣ المزهر (١/٢٧٦) .

لأنهم لم يكونوا يعرفون تلك الأطعمة ، وباحتكاك العرب بالفرس وببني إرم الذين اقتبسوا من الفرس بعض تلك المأكولات تعلموا منهم أنواع الأطعمة ، وأخذوا منهم أسماءها أيضاً ، ودخلت على بعضها الصنعة ، لتحويلها وفق قواعد النطق العربي .

وينطبق ما قلته عن المعربات الفارسية في الأكل والمشروبات وما يتعلق بهما ، على المعربات من الفارسية في العطور والروائح والطيب وما يتعلق بها، وعلى بعض العوائد الاجتماعية ، ولا سيما بين العرب الذين كانوا على اتصال مباشر بالفرس . فقد تأثروا بحكم هذا الاتصال بهم ، واقتبسوا منهم بعض عوائدهم، مثل استخراج ماء الورد المسمى (جلاب) ، وهو (ماء الورد) للتطيب به[1] . وقد وردت لفظة (الجل) ، ومعناها الورد في بيت شعر للأعشى[2] . وكذلك (الجلسان) ، وقد ذكر ان (الجلسان) من (كلشان) (كلشن) ، أي ما ينثر من الورد على الحاضرين في العرس ، وذكر انها الورد ، أو قبة يجعلون عليها الورد[3] . و (القمقم) ، قنينة لماء الزهر أو نحوه (قمقمة)[4] . وتعني لفظة كوكوميون Koukkoumion ، وهي (قمقم) وعاء من نحاس لتسخين الماء في اليونانية[5] . ولعل احدى اللغتين قد استعارتها من الأخرى . وقد رجع بعض علماء اللغة اللفظة الى الرومية ، أي اليونانية ، وذكر ان اللفظة وردت في بيت شعر لعنترة[6] . و (مسك) من (مشك)[7] . و (نافجة) وعاء المسك ، من أصل (نافه) من (ناف) بمعنى سرة[8] .

واستعارت العربية من الفارسية ألفاظاً من الألبسة والأنسجة والخياطة ، وذلك

---

١ المعرب (ص ١٠٦) .
٢ وشاهدنا الجل والياسمين والمسمعات بقصابها .
المعرب (ص ١١٥) .
٣ المعرب (ص ١٠٥ وما بعدها) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٣) .
٤ المعرب (ص ٢٦٠) ، غرائب اللغة (ص ٢٤١) .
٥ غرائب اللغة (ص ٢٦٦) .
٦ وكأن ربا أو كحيلا معقدا حش الوقود به جوانب قمقم
المعرب (ص ٢٦٠) .
٧ المعرب (ص ٣٢٥) ، غرائب اللغة (ص ٢٤٥) .
٨ المعرب (ص ٣٤١) ، غرائب اللغة (ص ٢٤٦) .

مثل (ابريسم) وهي من أصل (أبريشم)[1] و (استبرق) من أصل (استبرك) ، أي ثوب حرير مطرز بالذهب[2] . وقـد ذكر علماء اللغة أنها من (استفره) و (استروه)[3] . و (بركان) (برنكان) ، كساء ، من (برنيـان)[4] . و (تخريص) (دخريص) من أصل (تبريز)[5] ، وورد أن (البنيقة) معربة كذلك من أصل (بنيك) في معنى (التخريص) و(الدخريص)[6] . و (جربان) ويراد بها جيب القميص من أصل (كريبان)[7] ، و (الجوالق) ، من أصل (كوال) (جوال) ، ومعناهـا عدل كبير منسوج من صوف أو شعر[8] . و (الخسرواني) ، وهو الحرير الرقيق الحسن الصنعة ، وهو منسوب الى الأكاسرة أي الملوك[9] . و (الدخدار) وهو الثوب ، من أصـل (تخت دار)[10] . و (الديباج) من أصـل (ديوباف) أي نساجة الجن[11] ، و (السبيج) ، وهو قميص بلا كمين ولا جيب ، من أصل (شبي) ، أي ليلى[12] . و(سربال) ، من أصل (سر بال)[13] . و (سروال)[14] . و (الشوذر) الملحفة والإزار ، من أصل (جـادر)[15] . و (الطيلسان) من (طيلسان) (تالسان)[16] . و (الفرند) ، الحرير من (برند)[17] . و(الكرباس) ، ثوب خشن مـن (كرباس)[18] .

---

١ غرائب اللغة (ص ٢١٦) ، المعرب (ص ٢٧) .
٢ غرائب اللغة (ص ٢١٦) .
٣ المعرب (ص ١٥) .
٤ المعرب (ص ٥٦) ، غرائب اللغة (ص ٢١٨) .
٥ المعرب (ص ٨٧ ، ١٤٣) ، غرائب اللغة (ص ٢٢١) .
٦ المعرب (١٤٣) .
٧ المعرب (ص ٩٩) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٢) .
٨ المعرب (ص ١١٠) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٤) .
٩ المعرب (ص ١٣٥) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٥) .
١٠ المعرب (ص ١٤١) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٧) .
١١ المعرب (ص ١٤٠) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٩) .
١٢ المعرب (ص ١٨٢ وما بعدها) ، غرائب اللغة (ص ٢٣٣) .
١٣ غرائب اللغة (ص ٢٣٣) .
١٤ المعرب (ص ١٩٦) ، غرائب اللغة (ص ٢٣٤) .
١٥ المعرب (ص ٢٠٥) ، غرائب اللغة (ص ٢٣٧) .
١٦ المعرب (ص ٢٢٧) ، الجمهرة ، لابن دريد (٤١٣/٣) ، غرائب اللغة (ص ٢٣٩)
١٧ المعرب (ص ٢٤٣) ، غرائب اللغة (ص ٢٣٩ وما بعدها) .
١٨ المعرب (ص ٢٩٤) ، غرائب اللغة (ص ٢٤٢) .

وقد عرف الجاهليون ألقاب بعض القادة العسكريين والاداريين في الانبراطوريتين اليونانية والفارسية ، فأدخلوها في العربية ، لأنها ألقاب رسميـــة نعت بها أولئك الموظفون الكبار ، وعرفوا بعض الرتب الكنسية كذلك . فما دخل الى العربية من اليونانية واستعمل عند الجاهليين لفظة (بطريق) ، من أصل Patrikios [1] . وقد وردت في بعض الرسائل المنسوبة الى الغساسنة،ويراد بها درجة قائد في الانبراطورية البيزنطية . ولفظة (أسقف) ، وقد ورد في كتب السير : ان وفد نجران حين قدم على الرسول ، كان يتألف من رؤساء المدينة أصحاب الحل والعقد ، ويلقبون بـ (السيد) و (العاقب) و (الأسقف) . والسيد عندهم صاحب رحلتهم ، والعاقب أميرهم وصاحب مشورتهم الذي يصدرون عن رأيه ، والأسقف حبرهم وإمامهم وصاحب مدارسهم[2] . ولفظـــة (أسقف) هذه من أصل يوناني هو Episkopos [3] .

وأما (قيصر) التي يراد بها في العربية (انبراطور) الروم ، أي ملكهم ، فإنها من أصل لاتيني هو (سيسر) Caesar . وترد في كتب السير في معرض الكلام على الكتب التي أرسلها الرسول الى الروم والفرس والحبشة وبعض الأمراء[4] .

ومن المصطلحات المأخوذة من الفارسية في هذا الباب ، (الأسوار) ، وهو الرامي ، وقيل الفارس،وقائد الفرسان[5] ، من أصل (أسب سوار) ، و (اسب) الحصان ، و (سوار) عـــلى ظهر أي راكب ، ومعناها راكب الحصان أي فارس[6] ، وتجمع (أسوار) على (أساورة) . وترد في الكتب أحياناً مضافة (أساورة الفرس) ، وتجمع على (أساور) و (أساورة) أيضاً ، وقد وردا جميعاً في الشعر[7] .

وأما (الأشائب) ، ومفردها (أشابة) ، فمعناها الأخلاط من النـاس من

---

١ غرائب اللغة (ص ٢٥٥) .
٢ طبقات ابن سعد (١/٢٥٧) .
٣ غرائب اللغة (ص ٢٥٢) .
٤ طبقات ابن سعد (١/٢٥٩) .
٥ الجواليقي (ص ٢٠ وما بعدها) ، الجمهرة (٢/٢١٥) ، اللسان (٧/٥١) .
٦ غرائب اللغة (ص ٢١٦) .
٧ الجواليقي (ص ٢٠ وما بعدها) .

أصل (آشوب) . وذكر أنها عربية خالصة، من (أشب الشيء) بمعنى خلطه[1]. وترد لفظة (أنبار) و (الأنبار) ، وتعني أهراء الطعام ويقال للواحد (نبر) أيضاً وأمـا (الأنابير) جمع الجمع . وقد اشتهر موضع (الأنبار) على نهر الفرات على مقربة من الفلوجة ، وكان مأهولاً بالعرب عنـد ظهور الإسلام ، وقد ذكرت في الجزء الأول من هذا الكتاب أن بعض أهل الحجاز ينسب أخذ أهل مكة الكتابة الى قوم منهم ذكروا أنهم تعلموها من أهل الأنبار[2] .

و (الإيوان) في العربية ، الرواق . وهو مكان متسع من بيت تحيط بـه ثلاثة حيطان ، من أصل (أيوان) eyvan [3] . وأما (الدهقـان) ، فحاكم اقليم ، من (ده) بمعنى ضيعـة و (خان) بمعنى رئيس قبيلة ، وذلك في الفارسية القديمة . وقد وردت اللفظة في بيت شعر للأعشى . وتجمع على (دهاقين)[4]. وأما (كسرى) ، فملك من ملوك الفرس ، وهو (خسرو) Khosrow في الفارسية . ولكن الجاهليين جعلوا اللفظة لقباً لملوك إيران ، يقابـل (شاه) أي الملك ، وصارت عندهم مثـل : (قيصر) للروم ، وتُبَّع لليمن ، والنجاشي للحبشة[5] . واما (المرزبان) ، فالرئيس من الفرس ، وتفسيرها (حافظ الحدّ) في مقابل حاكم ووالي ولاية ، وتجمع على (المرازبة)[6] .

وأما لفظة (الهربذ) وتجمع على (الهرابذة) ، فخادم النار عند المجوس . وقيل: رئيس خدام النار الذين يصلون بالمجوس ، وقد تكلمت بها العرب قديماً . وقد وردت هذه اللفظة في بيت شعر لامرىء القيس[7] . وأما (موبذ) و (موبذان) فحاكم المجوس ، بمثابة القاضي عند المسلمين ، من (موبد) وهو الكاهن ورجل دين عند المجوس[8] .

---

١ الجواليقي (ص ٢٧) . غرائب اللغة (ص ٢١٦) .
٢ الجواليقي (ص ٢٠ ، ٢٩) . غرائب اللغة (ص ٢١٧) .
٣ الجواليقي (ص ١٩) ، غرائب اللغة (ص ٢١٧) .
٤ الجواليقي (ص ١٤٦) ، اللسان (٢١/١٧) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٩) .
٥ الجواليقي (٢٧١ ، ٢٨٢) ، غرائب اللغة (ص ٢٤٢) .
٦ الجواليقي (ص ٣١٧) ، غرائب اللغة (ص ٢٤٥) .
٧ الجواليقي (ص ٣٥١) ، غرائب اللغة (ص ٢٤٨) .
٨ غرائب اللغة (ص ٢٤٦) .

أما أسماء النقود ، فإنها معربات يرجع أصلها الى الفارسية أو اليونانيـــة أو اللاتينية . فقد كان الجاهليون يتعاملون مع الفرس والأرضين الخاضعة للانبراطورية الرومية ، ولهذا تعاملوا بنقود هاتين الانبراطوريتـين . وهـــي نقود مضروبة من المعادن . وتعاملوا بها في بلادهم أيضاً كما نتعامل نحن بالنقود الأجنبية. فـ (النّمّيّ) مثلاً ، هي فلوس رصاص كانت تتخـذ أيام ملك بني المنذر ، يتعاملون بها في الحيرة ، هي من أصل رومي ، أي يوناني ، هو noummiyon . وقـد وردت في بيت للنابغة :

وقارفت وهي لم تجرب وباع لها من الفصافص بالنّمّيّ سفسير[1]

وقد نسب هذا البيت لأوس بن حجر أيضاً[2] .

فيظهر من ذلك ان (بني المنذر) كانوا قد أخذوا اللفظة من اليونانية ، أي من نقود نحاس ضربها الروم ، فضربوها هم في الحيرة ، وتعامل بها الناس .

وأما (الدينار) ، وهو نقد كان معروفاً متداولاً بين الجاهليين ، مستعملاً في أسواق مكة وبقية مواضع الحجاز وجزيرة العرب عند ظهور الاسلام . وقـد ذكر في القرآن الكريم[3] ، فإنه نقـــد روماني يساوي عشرة دراهم ، ويعرف بـ denarius في اللاتينية[4] .

وأما (الدرهم) فاسم نقد يوناني ، يسمى دراخمي dhrakhmi في اليونانية، وقد شاع استعماله إذ ذاك . وقد وردت التسمية في بيت شعر هو :

وفي كل أسواق العراق إتاوة وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم[5]

ويفيد هذا البيت أن الحكومة كانت تأخذ إتاوة من الأسواق من التجار والباعة، وأن ما يباع يدفع عنه مكس ، قدره درهم[6] .

---

١ الجواليقي (ص ١٨٥) ، اللسان (١٥/٣٤٣) ، غرائب اللغة (ص ٢٧١) .
٢ الجواليقي (ص ١٨٥ ، ٣٣٠) .
٣ آل عمران ، الاية ٧٥ « ومنهم من ان تأمنه بدينار » .
٤ الجواليقي (ص ١٣٩) ، غرائب اللغة (ص ٢٧٨) ، « وقيل : أصله بالفارسيـة دين آراي : الشريعة جاءت به » ، المفردات في غريب القرآن (ص ١٧١) .
٥ الجواليقي (ص ١٤٨) .
٦ « الدرهم الفضة المطبوعة المتعامل بها » ، المفردات في غريب القرآن (ص ١٦٨) .

ولفظة (مكس) ، هـي أيضاً من الألفاظ المعربـة ، عربت من أصل (مكسو) Makso في لغة بني إرم[1] .

و (الدانق) نقد أخذت تسميته من الفارسية ، من (دانك)[2] . وقد بقي مستعملاً في الاسلام . وقد عرف الخليفة (أبو جعفر المنصور) بـ (الدوانيقي) نسبة الى هذا النقد .

وأما (الفلس) وتجمع على (فلوس) ، فإنه نقد من نحاس ، وأصله في اليونانية (فولس) follis[3] . وقد عبر عنه بمعنى نقود أيضاً ، فقيل في العامية (فلوس) ، وقصد بها نقود .

ومن المعربات المستعملة في تقويم النقد وفحصه ، لفظة (شقل) بمعنى الوزن[4]، أي وزن النقد لمعرفة مقدار معدنه المؤلف منه . ولفظة (قسطار) ،ومعناها ناقد الدراهم ، أي الناقد الماهر العارف بالنقد ، من أصل لاتيني هو quaestor[5] .

وتظهر هذه المعربات ان أهل الحجاز ونجد والعرب الشماليين كانوا قد استعملوا النقد البيزنطي والساساني في أسواقهم وفي تجارتهم ، وكانوا عالة على الأعاجم في استعمال النقد . وذلك مما يدل على ان تعاملهم التجـاري مع الانبراطوريتين كان وثيقاً . وقد بقيت هذه النقود الأعجمية مستعملة في الاسلام كذلك،وبقيت أسماؤها حية حتى بعد تعريب النقد ، ولا يزال اسم الدينار والدرهم والفلس الى هذا اليوم .

أما العرب الجنوبيون ، فكان لهم نقد خاص بهم . تحدثت عنه في الجزء الثامن من كتابي : تأريخ العرب قبل الإسلام . وقـد ذكرت أن بعض العلماء رجع تأريخ أقدم نقد عربـي جنوبي عثر عليه سنة (٤٠٠) قبل الميلاد[6] . ويظهر أن أهل الحجاز لم يتعاملوا به كثيراً،بدليل عدم وجود ذكر له في المؤلفات الاسلامية، وفي الأخبار الواردة عن أيام الرسول . وقد ذكرت أن أسمـاء تلك النقود أسماء

---

١ غرائب اللغة (ص ٢٠٦) .
٢ الجواليقي (ص ١٤٥) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٧) .
٣ غرائب اللغة (ص ٢٦٣) .
٤ غرائب اللغة (ص ١٩١) .
٥ الجواليقي (ص ٢٦٣) ، غرائب اللغة (ص ٢٧٩) .
٦ الجزء الثامن (ص ٢٠٠ وما بعدها) .

عربية جنوبية لا صلة لها بأسماء النقود التي تحدثت عنهـا ، ومن تلك الأسماء : (بلط) ويجمع على (بلطات) ، وهو اسم نقـد من ذهب . و (خبصت) (خبصة) ، نقد من نحاس ، و (رضى) ، قيل إنها اسم نقد ، وقيل إنهـا صفة للنقد . بمعنى رضية وصحيحة غير مزيفة ولا منقوصة ، لأن النقد كان على أساس الوزن والنوع في ذلك العهد . وذكرت أيضاً بعض الألفاظ التي استعملوها في الصيرفة وفي نقد النقود .

ومن الألفاظ اللاتينية التي دخلت الى العربية (لبرجد) ، وهو ثوب مزدان بالذهب ، وثوب غليظ مخطط من أصل Paragauda [1] . و (برذون) من أصل burdo و Burdonis [2] ، و (دينـار) من أصل denarius ، وهو نقد من المعدن[3] ، و (سجل) وقد تحدثت عنها [4] و (سجلاّط) من أصل (سجلاّطس) Sigillatum ، ثياب كتّان موشاة ، وكأن وشيها خاتم وتزدان بصور صغيرة [5] . و (سجنجل) ، وتعني المـرآة ، أو سبيكـة فضة مصقولة ، استعملت استعمال المرآة ، من أصل Sexaangulus التي تعني (المسدس الزوايا) في اللاتينية . وقد وردت في بيت لامرىء القيس[6] . و (الصراط) ، بمعنى الطريق ، من أصل لاتيني هو Strata بمعنى طريق كبير مبلط[7] . وقد عرف الرومان ببراعتهم في شق الطرق العسكرية لاستعمالها في التجـارة وفي الأغراض العسكريـة . و (الصاقور) الفأس لكسر الحجارة ، من أصل لاتيني هو Securis [8] .

ويظهر أثر الأخذ من اليونانية واللاتينية والفارسية والارمية في المكاييل والموازين كذلك ، وذلك عند عرب الحجاز ونجد والعراق وبلاد الشأم . أما عرب الجنوب فقد كانت لهم أسماء للمكاييل والموازين خاصة بهم ، اختلفت عن الأسماء المستعملة عند العرب الشماليين المذكورين وذلك كما تحدثت عنها في الموضوع الخاص بالمكاييل

---

١ غرائب اللغة (ص ٢٧٧) .
٢ غرائب اللغة (ص ٢٧٧) .
٣ الجواليقي (ص ١٣٩) ، غرائب اللغة (ص ٢٧٨) .
٤ « والسجيل ، حجر وطين مختلط ، وأصله فيما قيل فارسي » ، المفردات في غريب القرآن (ص ٢٢٣) .
٥ الجواليقي (ص ١٨٤) ، غرائب اللغة (ص ٢٧٨) .
٦ الجواليقي (ص ١٧٩) ، غرائب اللغة (ص ٢٧٨) .
٧ غرائب اللغة (ص ٢٧٨) .
٨ غرائب اللغة (ص ٢٧٨) .

والموازين عند الجاهليين في الجزء الثامن من كتابي : تأريخ العرب قبل الإسلام[1].

ومن هذه المعربات (المُدّ) ، وهو نوع مكيال للحبوب ، وهو من أصل لاتيني هو Modius[2] و (الجريب) ، من أصل إرمي هو (جريبو) Gribo[3]. و (الرطل) من أصل يوناني هو : Litra[4] ، و (الأوقية) من أصل يوناني هو uncia, ounguiya[5] ، و (مثقال) من أصل matqolo ، وهو وزن في الإرمية[6] . و (قيراط) ، وهو جزء من أربعة وعشرين من أجزاء شيء ، أو حبة واحدة من أربعة وعشرين حبة . وكان القدماء يزنون بالحب . واللفظة من أصل يوناني هو Keration[7] . و (قنطار) ، وهو مئة رطل ، من أصل لاتيني هو Centenarium Pondus[8] . و (الكر) ، وهو ستة أوقار حمار ، وهو مكيال لأهل العراق ، وقد ورد ذكره في الحديث ، هو (كرو) Kouro في لغة بني إرم[9] . وغير ذلك من أسماء ذكرتها في الجزء الثامن من هذا الكتاب . ولا حاجة بنا الى اعادة ذكرها .

وأخذت العربية من اللغة (السنسكريتية) بعض الألفاظ الخاصة بالمحاصيل الخاصة بالهند ، مثل الفلفل وبعض الأسماء المتعلقة بالتوابل والعقاقير والأطياب والجواهر[10] .

وقد أشار علماء اللغة الى ألفاظ شائعة على الألسنة ، لكنها أعجمية الأصل تأتي في نوع المعرب . ذكر (الثعالبي) أمثلة منها في كتابه (فقه اللغة) ، وقال عنها انها : « أسماء فارسيتها منسية وعربيتها محكية مستعملة ، هي : الكف ،

---

١ (الصفحة ٤١٠ وما بعدها) .
٢ غرائب اللغة (ص ٢٨٠) .
٣ غرائب اللغة (ص ١٧٦) .
٤ غرائب اللغة (ص ٢٥٨) .
٥ العرب قبل الاسلام (٨/٤١٤) ، Ency. Islam, II, p. 1025
غرائب اللغة (ص ٢٥٤) .
٦ غرائب اللغة (ص ١٧٦) .
٧ غرائب اللغة (ص ٢٦٧) .
٨ غرائب اللغة (ص ٢٧٩) .
٩ العرب قبل الاسلام (٨/٤١٩) .
غرائب اللغة (ص ٢٠٣) .
١٠ الرافعي ، تأريخ آداب العرب (١/٢٠٥) .

الساق ، الفرش ، البزّاز ، الوزّان ، الكيّال ، المسّاح ، البيّاع ، الدلاّل ، الصرّاف ، البقال ، الجمّال ، الحمّال ، القصاب ، البيطار ، الرائض ، الطرّاز ، الخراط ، الخياط ، القزّاز ، الأمير ، الخليفة ، الوزير ، الحاجب ، القاضي ، صاحب البريد ، صاحب الخبر ، السقّاء ، الساقي ، الشرّاب ، الدخل ، الخرج ، الحلال ، الحرام » الى غير ذلك من ألفاظ تجدها في كتابه وفي كتب اللغة التي نقلت منه[1] .

وفي بعض الذي ذكره ، ما هو فارسي حقاً ، أو من مصدر أعجمي آخر ، لم يعرفه (الثعالبي) ، لأنه لم يعرف من اللغات الأعجمية غير الفارسية ، فنسب أصل تلك الألفاظ اليها ، ولكن البعض الباقي هو عربي ، ما في أصله العربي من شك ، ولا يمكن أن يكون من المعربات .

ونجد في المعاجم وفي كتب اللغة كلاماً عن هذه المعربات، ففي كتاب (المزهر) وكتب اللغة المعتبرة صفحات نص فيها على الألفاظ المعربة من مختلف اللغات[2] . فلا أرى بي حاجة هنا الى ذكر تفاصيل أخرى عن الألفاظ المعربة بتفصيل كل ما نص عليه العلماء من المعربات . ولكني أود أن أبين ان علماء اللغة لم يكونوا على علم باللغات الأعجمية ، ولذلك لم يتمكنوا من رجع المعربات الى أصولها الحقيقية ، فأخطأوا في ذكر الأصول . ونظراً الى ان فيهم من كان يتقن الفارسية فقد رجع أصول كثير من الألفاظ الى أصل فارسي ، لأنه وجد أن الفرس نطقوا بها ، ولم يعلموا انهم أخذوها هم بدورهم من غيرهم ، فصارت من لغة الفرس، أو انهم وجدوا بعض الألفاظ قريبة من أوزان الفارسية للكلمات ، فظنوا انها فارسية ، مع انها من أصل آخر . وفعل بعض منهم ذلك عصبية منهم الى الفارسية لأنهم من أصل فارسي ، فتمحلوا لذلك تكثيراً لسواد المعربات من لغة الفرس وتعصباً لهم[3] .

وفي شعر الأعشى معربات عديدة مقتبسة من الفارسية ، قد يكون أخذها من عرب الحيرة وبقية عرب العراق ، وقد يكون أخذها من الفرس مباشرة لاتصاله

---

١ المزهر (١/١٢٣) .
٢ المزهر (١/٢٧٥ وما بعدها) .
٣ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١/٢٠٦) .

واختلاطه بهم في العراق . واقتبسها إما ليحكي عما شاهده ورآه في العراق، فاستعمل الألفاظ الفارسية الشائعة هناك ، وإما أن يكون قد تعمد إدخالها في شعره ليُري الناسَ أنه حاذق بثقافة الفرس واقف على حضارتهم ولغتهم ، كالذي يفعله بعض من يدرس في بلاد الغرب من استعماله ألفاظاً أعجمية في لغته ليلمح للناس بأنه قد تثقف بثقافة الأجانب ، وتلك في نظره ميزة يفتخر بها على الناس .

وقد زعم أن الأعشى رحل الى بلاد بعيدة ، فبلغ عمان وحمص وأورشليم وزار الحبشة وأرض النبيط وأرض العجم ، وقد ذكر ذلك في بيتين من الشعر[1] . والى زيارته هذه للعراق ولأرض العجم ينسب أهل الأخبار ورود الألفاظ الفارسية في شعره .

وفي بعض المعجمات وكتب اللغة مثل لسان العرب والمعرب للجواليقي ، أبيات للأعشى يرد فيها وصف لأحوال الفرس وعرب العراق ، وقد استعمل فيها ألفاظاً فارسية لها مناسبة وصلة بذلك الوصف . منها ما يتعلق بالملابس ، ومنها ما يتعلق بالأشربة والخمور والأفراح ، ومنها ما يتعلق بالمناسبات مثل الغناء والأعياد[2] .

وشاعر آخر نجد في شعره معربات فارسية ، هو (عدي بن زيد العبادي) . وهو من أهل الحيرة ، المقربين الى ملوكها والى الفرس ، الحاذقين بالعربية وبلغة الفرس . وقد كان كاتباً باللغتين ، كما كان أبوه بليغاً باللسانين ، وتولى رئاسة ديوان العرب عند الأكاسرة . وهو نصراني ، ولهذا استعمل في شعره ألفاظاً نصرانية اقتبست من السريانية ، وأشار بحكم نصرانيته الى عادات نصرانية ، كما كان حضرياً مترفاً غنياً أدخل الى بيته وسائل الترف والراحة المعروفة في ذلك اليوم ، ولهذا فإن لجمع شعره جمعاً تاماً ونقده وتحليله واستخراج صحيحه من منحوله أهمية كبيرة في اعطاء رأي عن الحياة الفكرية والثقافية لعرب العراق قبيل الاسلام .

وبعد ، فإن اللغة التي بحثت عن وجود المعربات فيها ، هي اللغة العربية التي

---

١ وطوفت للمال آفاقه عمان فحمص فأوريشلم
أتيت النجاشي في داره وأرض النبيط وأرض العجم
راجع ديوان الاعشى ، المعرب (ص ٣٢) .

٢ المعرب (ص ١٦ ، ١٨ ، ٥٣ ، ٧٢ ، ٧٩) ومواضع أخرى .

نزل القرآن بها . أما اللهجات والألسنة العربية الجنوبية ، فإن أثر هذه المعربات فيها كان قليلاً ، ونجد في كتاباتها ألفاظاً عربية جنوبية ، مكان تلك المعربات . ومعنى هذا بُعد تلك اللهجات عن المؤثرات الأعجمية الشمالية . وسبب ذلك رقي المتكلمين بها ، وتقدمهم في الحضارة بالقياس الى بقية سكان جزيرة العرب والى ابتكارهم أنفسهم لكثير من الأشياء ، فكان من الطبيعي أن تكون أسماؤها بلغة الصانعين لها .

ولدي ملاحظة ، هي ان وجود المعربات في العربية الحجازية ، يدل دلالة صريحة واضحة ، على ان المتكلمين بها كانوا قد تأثروا بالحضارات الشمالية أكثر من تأثرهم باخوانهم العرب الجنوبيين ، وان اتصالهم الفكري كان بالشمال أكثر منه بالجنوب ، ولا يقتصر هذا التأثر على المعربات فقط،بل يشمل كل المؤثرات الثقافية الأخرى ، كالذي رأيناه في مواضع متعددة من الأجزاء المتقدمة من هذا الكتاب . فكأننا أمام ثقافتين مختلفتين وشعبين متباينين ،بالرغم من اتصال حدود الحجاز باليمن ، وقرب المسافة بينهما ، حتى اللغة نجد بوناً شاسعاً بينها وبين اللغات العربية الجنوبية ، وهذا ما حمل بعض العلماء على القول : ما لغة حمير بلغتنا ، ولا لسانهم بلساننا ، ففرق بين اللسانين .

أما (أمية بن أبي الصلت) فقد وردت في شعره معربات من أصل سرياني في الغالب ، يظهر أنه أخذها من المنابع النصرانية التي قيل إنه وقف عليها . فقد ذكر أنه كان قد قرأ كتب أهل الكتاب ، ووقف على أخبارهم وعقائدهم ، وإن اتصاله بهم أثر في رأيه الذي كونه لنفسه في الأديان . وأرى أن من اللازم توجيه العناية لدراسة ما تبقى من شعره للوقوف على أصوله ، وعلى درجة تأثره بالتيارات الفكرية والآراء الدينية لأهل الكتاب ، وعلى الألفاظ المعربة عن السريانية أو غيرها التي ترد في شعر هذا الشاعر ، وذلك بعد التأكد من صحة الشعر .

ومن المعربات الواردة في شعر (أمية) لفظة (تلاميذ) جمع تلميذ ، وذلك في هذا الشعر المنسوب اليه :

والأرض معقلنا وكانت أمّنا فيها مقامتنا وفيها نولد
وبها تلاميذ على قذفاتها حُبسوا قياماً فالفرائص ترعد

وفي هذا الشعر :

صاغ السماء فلم يخفض مواضعها لم ينتقص علمه جهل ولا هرم
لا كشفت مرة عنّا ولا بليت فيهـا تلاميذ في أقفائهم دغم

وذكر أن (المتلمـد) الواردة في شعر ينسب له أيضاً ، بمعنى متلمذ ، وأن لفظة (التلاميذ) قد ترخم في الشعر على (تلام) ، كما جاء في شعر (الطرماح)، و (غيلان بن سلمة) الثقفي ، وهو من الشعراء المخضرمين[1] . ووردت لفظة (التلاميذ) في شعر لبيد ، في هذا البيت :

فالمـاء يجلو متونهن كما يجلو التلاميذ لؤلؤاً قشبا[2]

وقد ذكر علماء اللغة أن التلاميذ : غلمان الصاغة ، وهي فارسية[3] .

معرفة المعرب :

قال علماء العربية : تعرف عجمة الإسم بوجوه :

١) النقل بأن ينقل ذلك أحد أئمة العربية .

٢) خروجه عن أوزان الأسماء العربية نحو إبريسم ، فإن مثل هذا الوزن مفقود في أبنية الأسماء في اللسان العربي .

٣) أن يكون أوله نون ثم راء نحو نرجس ، فإن ذلك لا يكون في كلمة عربية .

٤) أن يكون آخره زاي بعد الدال ، نحو مهندز ، فإن ذلك لا يكون في كلمة عربية .

٥) أن يجتمع فيه الصاد والجيم ، نحو الصولجان والجص .

---

١ رسالة التلميذ ، للبغدادي ، نوادر المخطوطات (المجموعة الثانية) (ص ٢٢٢ وما بعدها) .
٢ شرح ديوان لبيد (ص ٣١) ، القصيدة رقم ٤ ، البيت ٢٠ .
٣ شرح ديوان لبيد (٣١) ، رسالة التلميذ (٢٢١) .

٦) أن يجتمع فيه الجيم والقاف نحو المنجنيق، والجردقة، والجرموق ، والجوسق، والجلاهق ، وجلنبق .

٧) أن يكون خماسياً أو رباعياً عارياً عن حروف الذلاقة ، وهي : الباء ، والراء ، والفاء ، واللام ، والميم ، والنون . فإنه متى كان عربياً ، فلا بد أن يكون فيه شيء منها . نحو سفرجل ، وقرطعب ، وجحمرش .

هذا وقد تتبع بعض علماء العربية كلام العرب ، فوجدوا بعض حالات إذا اجتمعت فيها حروف معينة دلت على أصل أعجمي ، من ذلك قولهم :

١) الجيم والتاء لا تجتمعان في كلمة من غير حرف ذي لقيّ ، ولهذا ليس الجبت من صميم العربية .

٢) الجيم والطاء لا تجتمعان في كلمة عربية ، ولهذا كان الطاجن والطيجن مولدين ، لأن ذلك لا يكون في كلامهم الأصلي .

٣) لا تجتمع الصاد والطاء في كلمة من لغتهم ، أما الصراط ، فصاده من السين .

٤) يندر اجتماع الراء مع اللام إلا في ألفاظ محصورة : كورَل ونحوه .

٥) قال (البطليوسي) : لا يوجد في كلام العرب دال بعدها ذال إلا قليل، ولذلك أبى البصريون أن يقولوا بغداذ .

٦) ليس في كلام العرب شين بعد لام في كلمة عربية محضة ، الشينات كلها في كلام العرب قبل اللامات[1] .

أقسام الأسماء الأعجمية :

« قال أبو حيان في الارتشاف : الأسماء الأعجمية على ثلاثة أقسام : قسم غيرته العربُ وألحقته بكلامها فحكم أبنيته في اعتبار الأصل والزائد والوزن حكم

---

١ المزهر (٢٦٨/٢ وما بعدها) ، الرافعي ، تاريخ آداب العرب (٢٠٢/١ وما بعدها) .

أبنية الأسماء العربية الوضع ، نحو درهم وبهـــرج . وقسم غيرته ولم تلحقه بأبنية كلامها ، فلا يعتبر فيه ما يعتبر في القسم الذي قبله ، نحو آجر وسفسير . وقسم تركوه غير مغير ، فما لم يلحقوه بأبنية كلامهم لم يعد منها ، وما ألحقوه بها عد منها ؛ مثال الأول خراسان ، لا يثبت به فُعالان ، ومثال الثاني : خُرَّم ألحق بسُلَّم ، وكُركُم ألحق بقُمقُم[1] .

إبدال الحروف :

وهناك حروف لا تتكلم بها العرب إلاّ ضرورة ، فإذا اضطروا اليها حوّلوها عند التكلم بها الى أقرب الحروف الى مخارجها ، وذلك كالحرف الذي بين الباء والفاء مثل (بور) إذا اضطروا قالوا (فور) . لأن (بور) ليس من كلام العرب . وحرف (ب) حرف غير عربي . وقد يحولون الـ (پ) الى (ب) ، كما في (سابور) ، وأصله (شاپور) .

وقد يحول حرف الـ (پ) الى(P) الى (ف) عند تحويل الأعلام الأجنبية الى عربية . مثـــل Platon ، اسم الفيلسوف اليونـاني ، (٤٢٧ – ٣٤٧ ق . م) الذي حـــول الى (افلاطون) . وذلك بتحويل حرف (الباء) الى (ف) ، وبتحويل حرف (التاء) الى (طاء) . وقد اتبع المعربون قاعدة تحويل (التاء) الواردة في الأعلام الأعجمية الى حرف (طاء) في الغالب ، فحول Aristotelès (٣٨٤ – ٣٢٢ ق. م) الى (أرسطوطـــاليس) . و Plotinos الاسكندري (٢٠٥ – ٢٧٠ م) ، الى (فلوطـــين) . ولو زالت هـــذه الطريقة معروفة فـ (تهران) عاصمة ايران ، هي (طهران) .

والعرب يعربون الشين سيناً ، فيقولون : نيسابور ، وهي نيشابور . وقـــد أبدلوا بالإضافة الى حرف (الشين) حرف (الپاء) (باءً) . فالأصل (نيشاپور) ، ومثل ذلك : (سابور) ، فالأصل هو (شاپور) .

« وقال بعضهم : الحروف التي يكون فيها البدل في المعرب عشرة : خمسة يُطرد إبدالها ، وهي : الكاف ، والجيم ، والقاف ، والباء ، والفاء . وخمسة

---

١ المزهر (١/٢٦٩ وما بعدها) .

لا يطرد إبدالها ، وهـي : السين ، والشين ، والعين ، واللام ، والزاي . فالبدل المطرد : هو في كل حرف ليس من حروفهـم كقولهم : كُرْبج ، الكاف فيه بدل من حرف بـين الكاف والجيم ، فأبدلوا فيه الكاف ؛ أو القاف نحو قربق . أو الجيم نحو جَوْرب ، وكذلك فِرند هو بـين الباء والفاء فرّة تبدل منها الباء ومرّة تبدل منها الفـاء . وأما ما لا يطرد فيه الإبدال ، فكل حرف وافق الحروف العربية كقولهم اسماعيل أبدلوا السين من الشين ، والعين من الهمزة ، وأصله إشمائيل . وكذلك قفشليل أبدلوا الشين من الجيم واللام من الزاي ، والأصل قفجليز . وأما القاف في أوله فتبدل من الحرف الـذي بين الكاف والجيم »[1] .

---

١ المزهر (١/٢٧٤) .

الفصل الثاني والاربعون بعد المئة

النثر

النثر هو الكلام المرسل الذي لا يتقيد بالوزن والقافية ، وهو الجزء المقابل للشعر ، من أجزاء الكلام . وهو أقدر من الشعر على إظهار الأفكار وعلى التعبير عن الرأي ، وعلى الإفصاح عن علم ومعرفة ، لكونه كلاماً مرسلاً حراً لا يتقيد بقيود ، خالياً من الوزن والقافية ومن المحافظة على القوالب ، إلا انه دون الشعر في التأثير في النفوس وفي اللعب بالعواطف ، لما في الشعر من سحر الوزن والقافية ، والإنشاد بأنغام متباينة مؤثرة ، لا سيما اذا ما اقترن بعزف على آلات طرب . ولوجود القافية والوزن في الشعر ، ولكونه أبياتاً ، سهل حفظه ، وصار من الممكن خزنه في الذاكرة أمداً طويلاً ، ومن هنا امتاز على النثر ، الذي لا يمكن حفظه بسهولة ، ولا خزنه في الذاكرة ، لعدم وجود مقومات الخزن المذكورة فيه .

والنثر الذي نقصده ونعنيه ، هو النثر الذي يبحث عنه مؤرخ الآداب ، لكونه قطعة فنية ، تعبر عن عاطفة انسانية ، وعن مظاهر الجمال والذوق والتأثير في النفوس ، فيه صياغة وفن في حبك القول ، وتفنن في طرق العرض ، وإغراء في تنميق الكلم ودبج الكلمات ، وحلاوة وطراوة وسحر وبيان ، فهو كلام عال لا يشبه كلام العامة ، ولا مما يتخاطب به الناس ، ولا مما يتعامل به في التجارة والمكسب أو في الدوائر ، وانما هو من قبيل كتب الأدب ، ومن قبيل الأمثال والخطابة والمراسلات الأدبية وما شاكل ذلك من وجوه . ولهذا ، نستبعد من هذا النثر ، ما وصل الينا من نصوص جاهلية ، لأنها كتبت في أغراض أخرى ،

كتبت في تقديم نـذور ، وفي معاملات : من بيع وشراء ، وتثبيت ملك ، أو تحديد حدود ، أو في قوانين وأوامر ، ولم تكتب في أغراض أدبية خالصة .

وبين أيدينا خطب طويلة ومتوسطة وقصيرة ، نسبها الرواة الى خطباء جاهليين، زعموا أنهم كانوا في أيامهم آية في الفصاحة والبلاغة والبيان ، وأساطير وقصص زعم أهل الأخبار أنها أخبار صحيحة وروايات مروية،وأصول منافرات ومفاخرات ومعاتبـات ومشاتمات ، زعموا أنها جرت في الجاهلية ، وانتقلت أصولها بنصها وفصها وحروفها وكلمها من رواتها الى الإسلاميين ، فـدوّنت في كتبهم ، كما رووا حكماً وأمثالاً وأقوالاً ، زعموا أنها لحكماء من أهل الجاهلية حفظهـا الناس حفظاً ، ورووها رواية رجـلاً عن رجل ، وجيلاً عن جيل ، حتى وصلت مرحلة التدوين . وكل هذا المسجل الذي نتحدث عنه ، هو من مدوّنات أهـل الإسلام ، ليس فيه من مدوّنات أهل الجاهلية أي شيء .

وبين هذا النثر ، خطب منمقة مزوّقة ، نسبت الى ملـوك وسادات العرب البائدة ، الذين بادوا قبل الإسلام بعهد طويل ، ومـات معهم أدبهم بالطبع ، وخطب نسبت الى التبابعة ، وقد هلكوا أيضاً قبل الاسلام ، وكـلام نسب الى أنبياء جاهليين ، والى الجن أيضاً ، رواه أهل الأخبار ، دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة الإفصاح عـن كيفية وصول تلك الخطب وذلك الكلام اليهم ، مع أنهم كرّروا القول بأن كلام بعضهم كان كلاماً آخر يخالف كلامنـا ، وأن عربيتهم لا تشاكل عربيتنا ، فكيف نقلوها ودوّنوها إذن في الاسلام ؟ ان نثراً من هذا النوع هو نثر مصطنع بالطبع صنع على لسان أولئك الماضين ، من غير شك ولا شبهة ، فهو من هذه الناحية مكذوب مرفوض .

وأما النثر المنسوب الى العرب الذين عاشوا قبيل الاسلام ، أو أدركوا الاسلام، فالصحيح فيه أقـل من المصنوع ، خاصة نصوص الخطب والحكم والمواعظ ، والقصص والأيام ، والوفادات والخطب الطويلة ، لأن من المستحيل على الذاكرة، حفظ الكلام المنثور بالحروف والكلمات حفظ أشرطة التسجيل له أو للغناء أو الموسيقى، مهما وهب الله تلك الذاكرة من قوة في قدرة الأخذ والحفظ . ثم هي إذا حفظته اليوم ، فلا بد وأن تتعثر به غداً ، ثم يزداد تعثرها به بعد ذلك . هذا رسول الله يذكر (قس بن ساعدة الإيادي) ، فيقول : « رحم الله قساً كأني أنظر

اليه على جمل أورق ، تكلم بكلام له حلاوة لا أحفظه »[1] ، وإذا راجعت نص خطبة (قس) في الموارد ، تجـد الرواة على اختلاف شديد فيما بينهم في ضبط نصّها[2] ، وهذا حديث رسول الله التام ، أي المروي بالنص ، وبالطرق الصحيحة تراه يرد أحياناً بعبارات مختلفة مع اتحاد المعنى ، مما يدل على أن رواته قد أجهدوا أنفسهم جهد طاقتهم في حفظه ، لكنهم عجزوا عن حفظه حفظ الكتاب للمكتوب . خذ صيغ التشهدات في الصلاة مثلاً ، وهي قصيرة العبارة ، لا طول فيها ، تجد الصحابة والفقهاء يختلفون مع ذلك في ضبطها ، فترى نص تشهد (ابن مسعود) يختلف بعض الاختلاف عن نص تشهد (ابن عباس) ، وعن نص تشهد (عمر) ، وعن نص تشهد (أبي سعيد الخدري) ، وعن تشهد (جـابر) ، مع قول (ابن مسعود) : « علمني رسول الله التشهد وكفّي بكفّه ، كما يعلمني السورة من القرآن » ، وقول (أبي سعيد الخدري) : « وكنّا لا نكتب إلا القرآن والتشهد » ، وقول (جابر) : « كان رسول الله يعلمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن »[3] ، بل خذ القرآن ، وهو كتاب الله المحفوظ المدوّن ، الذي حفظه بعض الصحابة ، وتلوه على الرسول ، وحرصوا على المحافظة على نصه حرصهم على حياتهم ، بل أشدّ منها ، ودوّنوه ساعة الوحي ، وأمام الرسول ، ظهرت مع ذلك فيـه قراءات ، بسبب اختلاف مدارك الصحابة في فهمه وفي حفظه ، وبسبب اللهجات وعيوب الخط ، فإذا كان هذا ما حدث في أيام الرسول وبعد وفاته بقليل ، وقد وقع في أعز كلام بالنسبة للمسلمين ، فهل يعقل بعد التصديق بصحة النصوص المروية لخطب طويلة ، زعم أنها قيلت في قصور كسرى ، أو بحضرة ملوك الحـيرة ، أو الغساسنة ، أو تبابعة اليمن ، أو الكلام المروي عن قوم عاد وثمود ، وقوم لوط ، وغيرهم وغيرهم ممن هلكوا وبادوا قبل الاسلام بزمن طويل .

ثم كيف نصدق بخطب زعم انها قيلت في الجاهلية ، مثل خطبة (النعمان بن المنذر) أمام كسرى ، أو خطب الوفد الذي أرسله هذا الملك الى (كسرى) ليكلمه في أمر العرب[4] ، وهي خطب طويلة منمقة ، على حين يذكر العلماء ان

---

١ الاصابة (٣/٢٦٥) ، (رقم ٧٣٤٣) .
٢ الجزء السادس من هذا الكتاب (ص ٤٦٤ وما بعدها) .
٣ أبورية ، أضواء على السنة المحمدية (٨٢ وما بعدها) .
٤ بلوغ الارب (١/١٤٧ وما بعدها) .

« الأحاديث لم تنقل كما سمعت من النبي صلى الله عليه وسلم،وانما رويت بالمعنى». وسبب ذلك ، انهم وجدوا ان من غير الممكن اثبات النص بالرواية من غير تبديل ولا تغيير قد يقع عليه ، وخشية وقوع هذا الخطأ في كلام الرسول ، وهو أعز كلام ، وعليه تترتب الأحكام في الحلال والحرام ، جوّزوا الرواية بالمعنى. ولهذا تركوا الاستشهاد بالحديث « على إثبات القواعد الكلية في لسان العرب »[1] ، ولو وثق العلماء من أن لفظ الحديث ، هو لفظ الرسول حقاً « لجرى مجرى القرآن الكريم في إثبات القواعد الكلية . وانما كان ذلك لأمرين : أحدهما ان الرواة جوّزوا النقل بالمعنى ، فتجد قصة واحدة قد جرت في زمانه صلى الله عليه وسلم لم يقل بتلك الألفاظ جميعها ، نحو ما روى من قوله : زوجتكها بما معك من القرآن ، ملكتكها بما معك من القرآن ، خذها بما معك من القرآن ، وغير ذلك من الألفاظ الواردة ، فتعلم يقيناً انه صلى الله عليه وسلم ، لم يتلفظ بجميع هذه الألفاظ ، بل لا يجزم بأنه قال بعضها ، إذ يحتمل انه قال لفظاً مرادفاً لهذه الألفاظ ، فأتت الرواة بالمرادف ، ولم تأت بلفظه إذ المعنى هو المطلوب،ولا سيما تقادم السماع وعدم ضبطها بالكتابة والاتكال على الحفظ . والضابط منهم من ضبط المعنى . وأما من ضبط اللفظ فبعيد جداً ، لا سيما في الأحاديث الطوال . وقد قال سفيان الثوري : إن قلت لكم اني أحدثكم كما سمعت ، فلا تصدقوني ، انما هو المعنى . ومن نظر في الحديث أدنى نظر علم العلم اليقين انهم يروون بالمعنى »[2] . « وفي سنن الترمذي ، عن مكحول عن وائلة بن الأسقع قال : اذا حدثناكم على المعنى فحسبكم ، ورواية الذهبي في سير أعلام النبلاء : اذا حدثتكم بالحديث على معناه فحسبكم »[3] .

لقد وجد الصحابة ان من الصعب عليهم حفظ كلام الرسول بالنص والحرف، وهم معه في كل وقت ، يحدثهم ويحدثونه ، فيشق عليهم ضبط كلامه ، وهم لا يكتبونه ولا يكررونه عليه ، وليس من الممكن أن يجلس رسول الله ، ثم يطلب من أصحابه إعادة كل كلام كلمهم به ، فسأله أحدهم : « يا رسول الله ني أسمع منك الحديث لا أستطيع أن أؤديه كما أسمعه منك ، يزيد حرفاً أو ينقص

---

١ خزانة الادب (١/٥) ، (طبعة بولاق) .
٢ خزانة الادب (١/٥ وما بعدها) ، (بولاق) ، أعلام النبلاء ، للذهبي (٣/٢٥٩) .
٣ أبورية ، أضواء على السنة المحمدية (٨١) .

حرفاً . فقال : اذا لم تحلّوا حراماً ولم تحرموا حلالاً وأصبتم المعنى فلا بأس »[1].
وكان من الصحابة من يروي حديثه تاماً ، ومنهم من يأتي بالمعنى ، ومنهم من يورده مختصراً ، وبعضهم يغاير بين اللفظين ويراه واسعـاً اذا لم يخالف المعنى .
وروي عن (مكحول) ، « قال دخلت أنا وأبو الأزهر على واثلة بن الأسقع فقلنا له : حدثنا بحديث سمعته من رسول الله ليس فيه ولا تزيـد ولا نسيان ! فقال : هل قرأ أحد منكم من القرآن شيئاً ؟ فقلنا : نعم ومـا نحن له بحافظين جداً . إنا نزيد الواو والألف وننقص ، فقال : هذا القرآن مكتوب بين أظهركم لا تألونه حفظاً ، وانكم تزعمون انكم تزيدون وتنقصون ، فكيف بأحاديث سمعناها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عسى ألا يكون سمعنا لها منه إلا مرة واحدة؟ حسبكم اذا حدثناكم بالحديث على المعنى .

وكان ابن أبي ليلى يروي الشيء مرة هكذا ومرة هكذا بغير إسناد ، وانما جاء هذا من جهة حفظه ، لأن أكثر من مضى من أهل العلم كانوا لا يكتبون، ومن كتب منهم فإنما كان يُكتب لهم بعد السماع،وكان كثير منهم يروي بالمعنى فكثيراً ما يعبر عنه بلفظ من عنده فيأتي قاصراً عن أداء المعنى بتمامه ، وكثيراً ما يكون أدنى تغيير له محيلاً له وموجباً لوقوع الإشكال فيه ، وقد أجاز الجمهور الرواية بالمعنى »[2] .

ولتجويزهم رواية الحديث بالمعنى ، لم يحتج أئمة النحو المتقدمين من المصرين بشيء من الحديث في النحو ، واعتمدوا في ذلك على القرآن وصريح النقـل عن العرب « ولولا تصريح العلماء بجواز النقل بالمعنى في الحديث ، لكـان الأولى في اثباته فصيح اللغة كلام النبي ، صلى الله عليه وسلم ، لأنـه أفصح العرب »[3] . جرى على ذلك الواضعون الأولون لعلم النحو المستقرئين للأحكام من لسان العرب كأبي عمرو بن العلاء ، وعيسى بن عمر ، والخليل ، وسيبويه من أئمة البصرة، والكسائي ، والفراء ، وعلي بن المبارك الأحمر ، وهشام الضرير من أئمة الكوفة . فعلوا ذلك لعدم وثوقهم أن ذلك لفظ الرسول ، إذ لو وثقوا بذلك لجرى مجرى

---

١ العراقي ، فتح المغيث بشرح ألفية الحديث (٣/٥٠) ، أبورية (٧٨) .
٢ أبورية ، أضواء على السنة المحمدية (٨١) .
٣ الخزانة (١/٤ وما بعدها) .

القرآن الكريم في اثبات القواعد الكلية[1] .

وإذا كان هذا موقف ذاكرة الصحابة من كتاب الله ومن حديث رسوله ، فهل يعقل أن تكون حافظتهم أقوى وأشد حفظاً واكثر دقة في رواية كلام هو دون كلام الله وكلام رسوله ، فنصدق قول من قال إن (سلمة بن غيلان) الثقفي مثلاً دخل في ناس من العرب على كسرى ، فطُرح لهم مخادٌ عليها صورته ، فوضعوها تحتهم ، إلا سلمة بن غيلان فإنه وضعها على رأسه ، فقال له : ما صنعت ؟ قال : ليس حق ما عليه صورة الملك أن يبتذل ، وما أجد في جسدي عضواً لا أكرم ولا أرفع من رأسي فجعلتها فوقه . فقال له : ما أكلك ؟ فقال : الحِنطة . فقال : هذا عقل الحنطة[2] . أو أن نصدق بكلام وفد (طي) إلى (سواد بن قارب) الدوسي ، وامتحانهم إياه ، ثم جوابه المسجع على سجعهم[3] ، أو كلام الكاهنة (عفيراء) الحميرية[4] ، أو كلام (ابنة الخس)[5] ، أو كلام (عبد المطلب) ، وغيره من سادات قريش مع تبابعة اليمن وحكامها الحبش ، وهو كلام مضبوط بالحروف والكلمات ، ترويه كتب أهل الأخبار على أنه كلام صحيح صادق ، لم ينله تغيير ولا اعتراه تبديل ، وكأنه قد سجل على شريط (تسجيل) ، أو على اسطوانة ، لم تلعب بها يد إنسان .

جاء في (لسان العرب) : « قيل لسيدنا محمد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الأمي لأن أمة العرب لم تكن تكتب ولا تقرأ المكتوب،وبعثه الله رسولاً وهو لا يكتب ولا يقرأ من كتاب ، وكانت هذه الخلة احدى آياته المعجزة ، لأنه ، صلى الله عليه وسلم ، تلا عليهم كتاب الله منظوماً ، تارة بعد أخرى ، بالنظم الذي أنزل عليه فلم يغيره ولم يبدل ألفاظه ، وكان الخطيب من العرب ، اذا ارتجل خطبة ثم أعادها زاد فيها ونقص »[6] ، فإذا كان هذا شأن الخطيب ،

---

١ الخزانة (١/٥) .
٢ المصون (١٩٨) .
٣ بلوغ الارب (٣/٢٩٩ وما بعدها) .
٤ بلوغ الارب (٣/٢٩٦) .
٥ في جملة كتب « ثعلب » : كتاب : تفسير كلام ابنة الخس ، الفهرست (١١٧) ، (الفن الثاني من المقالة الثانية من كتاب الفهرست في أخبار العلماء) .
٦ اللسان (١٢/٣٤) .

وهو مرتجل الخطبة ، وصاحبها لا يستطيع إعادة نصها ، فكيف يكون حال السامع الذي يسمعها سماعاً ولا يكتبها على صحيفة ، فهل يجوز اذن لنا التصديق بصحة نصوص هذه الخطب الجاهلية وما يروونه عن الجاهليين من أدب منثور !

السجع :

وقد جعل (الجاحظ) كلام العرب أنماطاً ، جعله « في الأشعار ، والأسجاع، والمزدوج ، والمنثور »[1] .

والسجع في تعريف العلماء له : الكلام المقفى ، أو موالاة الكلام على روي واحد . وقيل : السجع أن يأتلف أواخر الكلم على نسق كما تأتلف القوافي . وسجع يسجع سجعاً : نطق بكلام له فواصل كفواصل الشعر من غير وزن[2] . وقد ألِف (الكهان) النطق بالسجع ، حتى غلب على كلامهم ، واختص بهم ، كما اختص الشعر بالشعراء ، فعرف لذلك بـ (سجع الكهان) . « ولما قضى النبي صلى الله عليه وسلم ، في جنين امرأة ضربتها الأخرى ، فسقط ميتاً بغرة على عاقلة الضاربة ، قال رجل منهم : كيف ندى من لا شرب ولا أكل ولا صاح ، فاستهل . ومثل دمه يطل . قال صلى الله عليه وسلم : أسجع كسجع الكهان . وفي رواية : إياكم وسجع الكهان . وفي الحديث انه ، صلى الله عليه وسلم ، نهى عن السجع في الدعاء . قال الأزهري : انما كره السجع في الكلام والدعاء لمشاكلة كلام الكهنة وسجعهم فيما يتكهنونه ، فأما فواصل الكلام المنظوم الذي لا يشاكل السجع ، فهو مباح في الخطب والرسائل »[3] . وروي الحديث على هذه الصورة : « اقتتلت امرأتان من هذيل ، فرمت احداهما الأخرى بحجر ، فقتلتها وما في بطنها ، فاختصموا الى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقضى رسول الله ان دية جنينها غُرّة ، عبد أو وليدة ، وقضى بدية المرأة على عاقلتها. وورثها ولدها ومن معهم . فقال حمل بن النابغة الهذلي : يا رسول الله كيف أغرم من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهل ، فمثل ذلك يطلّ ، فقال رسول

---

١ الحيوان (٧/٢١٦ وما بعدها) ، (عبد السلام محمد هارون) .
٢ تاج العروس (٥/٣٧٦) ، (سجع) .
٣ تاج العروس (٥/٣٧٦) ، (سجع) .

الله ، صلى الله عليه وسلم : انما هذا من اخوان الكهان ، من أجل سجعه الذي سجع »[1] .

قال الجاحظ في معرض كلامه على السجع وقول الرسول : أسجع كسجع الجاهلية[2] . « وكان الذي كره الأسجاعَ بعينها وإن كانت دون الشعر في التكلف والصنعة ، أن كهان العرب الذين كان أكثر الجاهلية يتحاكمون اليهم ، وكانوا يدّعون الكهانة ، وأن مع كل واحد منهم رئياً من الجن ، مثل حازي جهينة ، ومثل شقّ وسطيح ، وعُزّى سلَمة ، وأشباههم : كانوا يتكهنون ، ويحكمون بالأسجاع ، كقول بعضهم : والأرض والسماء والعُقاب الصقعاء ، واقعة ببقعاء ، لقد نفر المجد بني العُشراء ، للمجد والسناء .

وهذا الباب كثير . ألا ترى أن ضمرة بن ضمرة ، وهرم بن قطبة ، والأقرع ابن حابس ، ونفيل بن عبد العزى ، كانوا يحكمون ، وينفرون بالأسجاع ؟ وكذلك ربيعة بن حذار .

قالوا : فوقع النهيُ في ذلك الدهرِ ، لقرب عهدهم بالجاهلية ، ولبقيتها في صدور كثير منهم ، فلما زالت العلة ، زال التحريم .

وقد كانت الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين ، فيكون في تلك الخُطب أسجاع كثيرة فلا ينهونهم[3] .

وقد كان الكهّان حكّاماً كذلك ، يفصلون في الخصومات بين الناس . يأتي اليهم المتخاصمون ، وبعد أن يؤكدوا لهم رضاهم وقناعتهم بحكمهم ، يحكمون بينهم فيما يرونه . وينسب الناس الى الكهان إدراك الغيب برئي يأتي اليهم فيلقي لهم بما يراه ويعلمهم من المغيبات عما يسألون ، ولذلك ورد : أن الكهانة هي ادعاء علم الغيب ، كالإخبار بما سيقع ، وورد : الكاهن القاضي بالغيب ، وكل من أدل بشيء قبل وقوعه[4] .

---

١ شرح الامام النووي على صحيح مسلم (١٩٦/٧) ، (حاشية على ارشاد الساري) ، صحيح مسلم (١١٠/٥) .
٢ البيان والتبيين (٢٨٧/١) ، (لجنة) .
٣ البيان (٢٨٩/١ وما بعدها) « لجنة » ، (٢٢٩/١) ، (عبد السلام هارون) .
٤ بلوغ الارب (٢٦٩/٣) .

ويفهم من روايات أهل الأخبار ومن كتب الحديث والموارد الأخرى ، أن الكهانة كانت شائعة في الناس،فكانوا يقصدونهم في كل شيء لاستشارتهم وللأخذ برأيهم وللفصل في الخصومات والمنازعات . وقد منعها الاسلام ، حتى ورد في كتب الحديث : إن من أتى كاهناً أو عرّافاً فقد كفر[1] .

ونجد في بطون الكتب أمثلة من سجع الكهان . وهو يستحق الدرس والبحث، لتحليل عناصره ، وبيان صدقه من كذبه ، وصحيحه من فاسده . وفي بعضه مثل ما نسب الى (زبراء الكاهنة) ، محاكاة لأسلوب السور القصيرة من القرآن الكريم[2] . وهو مرحلة مهمة من مراحل تطور أسلوب الكلام عند العرب ، وهو حري اذن بالدراسة وبالبحث .

وقد أشير الى قول الكهان في القرآن الكريم في آية : « فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون »[3] ، و « انه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن ، قليلاً ما تذكرون »[4] . فقد زعموا انه كاهن ، وزعموا انه مجنون[5] ، فوبخوا لزعمهم هذا ، وقيل لهم ان « محمداً ليس بكاهن فتقولوا هو من سجع الكهان »[6] . « وكانت قريش يدعون انهم أهل النهي والأحلام »[7] ، « فقال الله أم تأمرهم أحلامهم بهذا أن يعبدوا أصناماً بكماً صماً ، ويتركوا عبادة الله ، فلم تنفعهم أحلامهم حين كانت لدنياهم »[8] ، فانزعجوا منه وقالوا عنه انه كاهن ، وانه شاعر ، وانه مجنون . وفي اتهامهم الرسول بأنه كاهن ، وبأن القرآن « هو من سجع الكهان »[9] ، دلالة على وجود السجع عند الجاهليين ، وانه كان من نمط الكلام الذي اختصوا به . فلا مجال اذن للشك في وجود السجع عندهم ، وان كنا نشك في صحة نصوص السجع المنسوب اليهم .

---

١ بلوغ الارب (٣/٢٧٠) .
٢ راجع كلامها لجماعة من قضاعة في بلوغ الارب (٣/٢٨٨ وما بعدها) .
٣ الطور ، الرقم ٥٢ ، الاية ٢٩ .
٤ الحاقة ، الرقم ٦٩ ، الاية ٤٢ ، تفسير الطبري (٢٩/٤١) .
٥ تفسير الطبري (٢٧/١٩) .
٦ تفسير الطبري (٢٩/٤١ وما بعدها) .
٧ تفسير النيسابوري (٢٧/٢٥) ، (حاشية على الطبري) .
٨ تفسير الطبري (٢٧/١٩) .
٩ تفسير الطبري (٢٩/٤١) .

ويذكر أهل الأخبار ، أن (ضماداً) لما قدم مكة معتمراً ، « سمع كفار قريش يقولون : محمد مجنون . فقال : لو أتيت هذا الرجل فداويته ، فجاءه فقال له : يا محمد إني أداوي من الريح ، فإن شئت داويتك لعل الله ينفعك . فتشهد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وحمد الله وتكلم بكلمات فأعجب ذلك ضماداً فقال : أعدها عليّ ، فأعادها عليه ، فقال : لم أسمع مثل هذا الكلام قط ، لقد سمعت كلام الكهنة والسحرة والشعراء فما سمعت مثل هذا قط »[1] . فالكهنة والسحرة والشعراء هم طبقة خاصة ، كانوا يؤثرون في عواطف السامعين باستعمالهم أسلوباً خاصاً من الكلام ، هو أسلوب السجع ، بالنسبة الى الكهنة والسحرة ، والشعر بالنسبة الى الشعراء . أما الخطباء ، فقد كانوا سجاعاً في الغالب ، لكنهم كانوا يستعملون المرسل من النثر أيضاً بأساليبه المختلفة .

وقد ذكر (الجاحظ) أن (الكهان) كانوا « يتكهنون ويحكمون بالأسجاع »[2] ، هذه (زبراء) تنذر (بني رئام) ، عن أنباء ستقع ، فتقول « واللوح الخافق والليل الغاسق ، والصباح الشارق ، والنجم الطارق ، والمزن الوادق ، إن شجر الوادي ليأدو خَتْلا ، ويحرق أنياباً عُصلا ، وإن صخر الطود لينذر ثُكلا ، لا تجدون معه معلا ، فوافقت قوماً أشارى سكارى ، فقالوا : ريح خجوج ، بعيدة ما بين الفُرُوج ، أنت زبراء بالأبلق النتوج . فقالت زبراء : مهلاً يا بني الأعزة ، والله إني لأشم ذفر الرجال تحت الحديد ، فقال لها فتى منهم يقال له هُذيل بن منقذ: يا خذاق ، والله ما تشمين إلا ذَفَر إبطيك، فانصرفت عنهم وارتاب قوم من ذوي أسنانهم ، فانصرف منهم أربعون رجلاً وبقي ثلاثون فرقدوا في مشربهم ، وطرقتهم بنو داهن وبنو ناعم فقتلوهم أجمعين »[3] .

وهذا كاهن (بني أسد) (عوف بن ربيعة) ، يأتيه (رئيه) ، فيتكهن لقومه قائلاً : « يا عبادي ! قالوا : لبيك ربنا ، قال : من الملك الأصهب ، الغلاّب غير المغلّب ، في الإبل كأنها الربرب ، لا يعلق رأسه الصخب ، هذا دمه ينثعب ، وهذا غداً أول من يُسلب ، قالوا : من هو يا ربنا ؟ قال :

---

١ ابن سعد ، طبقات (٤/٢٤١) ، (الطبقة الثانية من المهاجرين والانصار) .

٢ البيان والتبيين (١/٢٨٩ وما بعدها) .

٣ الامالي للقالي (١/١٢٦ وما بعدها) .

لولا : أن تجيش نفس جاشية ، لأخبرتكم انه حجر ضاحية . فركبوا كل صعب وذلول فما أشرق لهم النهار حتى أتوا على عسكر حُجر فهجموا على قبته »[1] .
وهذا (خنافر بن التوءم) الحميري الكاهن ، وكان قد أوتي بسطة في الجسم ، وسعة في المال ، وكان عاتياً ، يأتيه (رئيه) بعد غيبة طويلة ، فيقول : (خُنافر) فيجيبه : (شصار ؟) ، فقال : « اسمع أقل » ، قال خنافر : قل اسمع ، فقال : عه تغنم ، لكل مدة نهاية ، وكل ذي أمد الى غاية . قال خنافر : أجل ، فقال : كل دولة الى أجل ، ثم يتاح لها حول ، انتسخت النِّحَل ، ورجعت الى حقائقها الملل ، انك سجير موصول ، والنصح لك مبذول ، وإني آنست بأرض الشأم ، نفراً من آل العُدام ، حكاماً على الحكام ، يذبرون ذا رونق من الكلام ، ليس بالشعر المؤلف ، ولا السجع المتكلف ، فأصغيت فزجرت ، فعاودت فظلفت ، فقلت بمَ تهيمنون ، وإلام تعترون ؟ قالوا : خطابٌ كبار ، جاء من عند الملك الجبار ، فاسمع يا شصار ، عن أصدق الأخبار ، واسلك أوضح الآثار ، تنج من أوار النار ، فقلت : وما هذا الكلام ؟ فقالوا : فرقان بين الكفر والايمان ، رسول من مضر ، من أهل المدر ، ابتُعث فظهر ، فجاء بقول قد بهر ، وأوضح نهجاً قد دثَر ، فيه مواعظ لمن اعتبر ، ومعاذ لمن ازدجر ، ألف بالآي الكبر ، قلت : ومن هذا المبعوث من مضر ؟ قال : أحمد خير البشر ، فإن آمنت أعطيت الشبر ، وان خالفت أصليت سقر ، فآمنت يا خنافر ، وأقبلت اليك أبادر ، فجانب كل كافر ، وشايع كل مؤمن طاهر ، وإلا فهو الفراق ، لا عن تلاق ، قلت : من أين أبغي هذا الدين ؟ قال : من ذات الإحرَّين ، والنفر اليمانين ، أهل الماء والطين ، قلت : أوضح ، قال : الحق بيثرب ذات النخل ، والحرة ذات النعل ، فهناك أهل الطول والفضل ، والمواساة والبذل ، ثم املس عني . فبت مذعوراً أراعي الصباح ، فلما برق لي النور امتطيت راحلتي ، وآذنت أعبدي ، واحتملت بأهلي حتى وردت الجوف ، فرددت الإبل على أربابها بحولها وسقابها ، وأقبلت أريد صنعاء ، فأصبت بها معاذ بن جبل أميراً لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فبايعته على الاسلام وعلّمني سوراً من القرآن ، فمنّ الله عليّ بالهدى بعد الضلالة ، والعلم بعد الجهالة » .

---

١ الاغاني (٩/٨٤) .

وهكذا أسلم – على حد قول أهل الأخبار – والفضل يعود في ذلك الى (رئيه) (شصار) الذي أسلم قبله ، وهو من الجن ، والجن مثل البشر ، منذ ظهـر الاسلام بين مسلم وكافر . ولما أسلم (خنافر) ، قال شعراً يحمد الله فيه على أن منّ عليه بالاسلام ، ويذكر (رئيه) (شصار) بالخير ، إذ لولاه لكـان في نار جهنم[1] .

وأسندوا له قوله :

ألم ترَ أن الله عاد بفضله وأنقذ من لفح الجحيم خنافـرا
دعاني شصار للتي لو رفضتها لأصليت جمراً من لظى الهون جائرا

وهو خبر يرجع سنده الى (ابن الكلبي) . وقد ذكر في الأخبـار المنثورة لابن دريد . وقد ذكر انه أسلم على يد معاذ بن جبل باليمن[2] . لا أدري كيف حفظه (ابن الكلبي) ورواه عن والده ، الـذي صنعه ووضعه ، إلا أن يكون والده قد حضر المحاورة فكان يسجلها ، وهو ما يعد من المستحيلات .

وقد أمات الاسلام (الكهانة) ، فقد اجتثها وحاربها ، وحث على نبذ سجع الكهان وأساليب الكهان في الملبس ، فكان منهم من قاوم ، ثم انخذل ، بدخول قومه في دين الله ، فدخل معهم فيه . وفي كتب أهل الأخبار قصص على نمط قصة اسلام (خنافر) ، وكلام دار بينهم وبين (رئيهم) ، دوّنه أهل الأخبار بالحروف والكلم ، لم يتركوا منه حرفاً ، وكأنهم كانوا كتاب ضبط محضر جلسات أمروا بتدوين كـل محضر ساعة وقوعه . وتجد أخبار الكهان ، وما لاقوه من عنت من (رئيهم) حين أدركوا الاسلام ، وما أخبروا به من قرب ظهور الرسول كأخبار العراف اللهبي (العائف)[3] ، و (الغيطلة) الكاهنة[4] ، والكاهن (خطر)[5] ،

---

١ الامالي (١/١٣٤ وما بعدها) .
٢ الاصابة (١/٤٥٧) ، (٢٣٤٢) ، الاستيعاب (١/٤٥٩ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .
٣ ابن هشام ، سيرة (١/١١٨) ، (حاشية على الروض) ، (١/١٣٥ وما بعدها) ، (أخبار الكهان) .
٤ ابن هشام (١/١٣٧) ، الروض الانف (١/١٣٧) .
٥ ابن هشام (١/١٣٨) .

والكاهن (سواد بن قارب) الدوسي[1] ، و (ابن الهيبان)[2] ، والمأمور الحارثي[3]، وغيرهم وغيرهم .

ولسجع الكهان ، طريقة خاصة به ، ميزته عن سجع غيرهم ، فهو قصير الفقرات ، يلتزم التقفية وتساوي الفواصل من كل فقرتين أو أكثر ، يعمد الى الألفاظ العامة المبهمة المعماة ، والى تكوين الجمل الغامضة، ليمكن تأويلها تأويلات متعددة ، وتفسيرها بتفاسير كثيرة ، لا تلزم الكاهن ، فيقع في حرج ، كالذي يقع لو تكلم بكلام واضح صريح . فيظهر بمظهر الجاهل الكاذب . أما السجع المنسوب الى الخطباء ، ففقره أطول ، وكلمه أوضح ، طويل النفس ، متحرر نوعاً ما من قيود سجع الكهان ، بين الفقر تطابق في الطول ، وفي فقره بيان مشرق ، فواصله كفواصل الشعر من دون وزن. جهد صاحبه أن يجعل الفواصل واضحة صافية ، ذات مقاطع مستقلة في الغالب بمعناها ، وينتهي الكلام بانتهائها من غير التزام قافية ، وقد يكون مرسلاً ، خالصاً من تساوي الجمل والتزام القافية ، فهو بين سجع وازدواج وترسل . وقد يكون مزدوجاً ، فهو سجع خفيف مقبول .

وبالاضافة الى السجع ، واستعمال الألفاظ الغامضة المبهمة ، والإيماءة والرموز والتكنية عن الأشياء ، تهرباً من التصريح ، وحذر افتضاح الأمر ، كان الكاهن يلحف في الأسئلة ويمعن في الاستفسار ، حتى يستنبط من ذلك بفطنته وذكائه ما يريد السائل ، فيعطيه جواباً مائعاً ، شأن جواب السحرة والعرافين ، كما كان يعمد الى القسم بظواهر الطبيعة من كواكب ونجوم،وشمس وقمر،ورياح وعواصف وسحب ، وليل ونهار ، وشجر وحجر،وأمثال ذلك مما نجده في خطبهم وأقوالهم، وهو شيء يلفت النظر ، ويبعث على التعجب من قسم القوم بهذه الأمور . ولكن المتتبع الدارس لعقائد القوم في الجاهلية ، ولحياتهم الاجتماعية لا يعجب من ذلك ، كما لا يعجب من قسمهم بالخبز ، والملح ، واللبن ، والقوس ، والعصا ، فإن لهذه الأمور وأمثالها معاني عميقة عند أهل الجاهلية ، فقدت أكثريتها معانيها في

---

١ ابن هشام (١/١٤٠) .

٢ ابن هشام (١/١٤١) .

٣ الامالي (١/٢٧٦) ، الاغاني (١٥/٧٠) .

الاسلام ، بسبب إبطاله لتلك العقائد ، وان بقي حشد منها في نفوس الناس الى هذا اليوم ، بسبب رسوخه في العقل والدم .

وفي القرآن قسم بالسماء ، وبالعاديات ، وبالتين والزيتون ، وبغير ذلك[1] ، ذهب المفسرون في سبب القسم بها مذاهب ، ففسروا وتأولوا ، ولو فكروا ان هذا النوع من القسم ، هو أسلوب من أساليب العرب في القسم قبل الاسلام ، وأن القرآن انما نزل بلسان العرب ، ولذلك اتبع طريقتهم في القسم ، لأنه خاطبهم على قدر عقولهم وبلغتهم ، عرفوا السبب ، ولا زال الأعراب على سجيتهم القديمة في القسم بهذه الأشياء ، يقسمون بها كما يقسم المتحضر بأعز شيء عنده .

والسجع في الواقع باب من أبواب الشعر ، والمرحلة الأولى من مراحله ، والبذرة التي أنبتت الشعر العربي . ويتكون من فقرات . واذا أخذنا الشعر البدائي الذي يكون المرحلة الأولى من الشعر ، نرى انه لا يختلف اختلافاً كبيراً عن السجع . و (الكلام المسجع) ، هو ضرب من ضروب الشعر عند غير العرب . وقد طوّر الشعراء السجع ، وأوجدوا منه الشعر ، واذا درسنا أول الشعر العبراني ، أو أوليات الشعر عند الشعوب السامية ، وعند الشعوب الآرية ، نجد انه نمط من أنماط هذا الكلام الذي نسميه (السجع)[2] . وهو لا زال يعد شعراً عند كثير من شعوب هذا اليوم .

والمزاوجة والازدواج بمعنى واحد . وازدوج الكلام وتزاوج أشبه بعضه بعضاً في السجع أو الوزن[3] ، والازدواج لون من ألوان الإفصاح عن الشعور بأسلوب من أساليب الأدب المنثور ، أخف على النفس من السجع ، وأسهل انقياداً لأنامل الكتاب منه . وهو على كل حال لون من ألوانه ، خففت قيود قوافيه ، حتى صار على هذا الشكل . ومن الازدواج قول أحد بني أسد يخاطب رجلاً شيخاً مات ابن له : « اصبر أبا أمامة ، فإنه فرط افترطته ، وخير قدمته ، وذخر أحرزته » . فقال مجيباً له : « ولد دفنته ، وثكل تعجلته ، وغيب وُعِدته ، والله لئن لم أجزع النفس ، لا أفرح بالمزيد »[4] .

---

١ تفسير الطبري (٣٠/١٥٣ وما بعدها) .
٢ Goldziher, History of Classical Arabic Literature, p. 8.
٣ تاج العروس (٢/٥٥) ، (زوج) .
٤ البيان والتبيين (٢/١١٦) .

وقد تحدث (الجاحظ) في أثناء حديثه عن الشعوبية ومطاعنها على خطباء العرب عن أساليب الجاهليين في الكلام في أمورهم الجليلة مثل المنافرة والمفاخرة ، وعقد المعاقدة والمعاهدة وأمثال ذلك ، ثم عن أخذهم المخصرة ، عند مناقلة الكلام ، فقال : « ومطاعنهم على خطباء العرب : بأخذ المخصرة عند مناقلة الكلام ، ومساجلة الخصوم بالموزون والمقفى ، والمنثور الذي لم يُقفّ ، وبالأرجاز عند المتح ، وعند مُجاثاة الخصم ، وساعة المشاولة ، وفي نفس المجادة والمحاورة . وكذلك الأسجاع عند المنافرة والمفاخرة ، واستعمال المنثور في خطب الحمالة ، وفي مقامات الصلح ، وسلّ السخيمة ، والقول عند المعاقدة والمعاهدة ، وترك اللفظ يجري على سجيته وعلى سلامته ، حتى يخرج على غير صنعة ولا اجتلاب تأليف ، ولا التماس قافية ، ولا تكلف لوزن . مع الذين عابوا من الاشارة بالعصي ، والاتكاء على أطراف القسي ، وخدّ وجه الأرض بها ، واعتمادها عليها إذا اسحنفرت في كلامها ، وافتتنت يومَ الحفل في مذاهبها ، ولزومهم العمائم في أيام الجمُوع ، وأخذ المخاصر في كل حال ، وجلوسها في خطب النكاح ، وقيامها في خطب الصلح وكل ما دخل في باب الحمالة ، وأكد شأن المحالفة ، وحقق حُرمة المجاورة ، وخطبهم على رواحلهم في المواسم العظام ، والمجامع الكبار ، والتماسح بالأكف ، والتحالف على النار ، والتعاقد على المِلح ، وأخذ العهد الموكّد واليمين الغموس ، مثل قولهم ما سرى نجم وهبت ريح ، وبل بحر صوفة ، وخالفت جرةٌ درة »[1] . فنحن إذن أمام طرق من الكلام ، كل طريق منها يؤدي الى نوع من الكلام ، يستخدم في حالة من الحالات ، فمساجلة الخصوم ، تكون بالموزون والمقفى ، والمنثور الذي لا يقفى ، أي المرسل ، أما في حالة الشدة والعمل ، مثل المتح ، أي الاستقاء من البئر ، وفي حالات البناء ورفع الحجر ، وفي القتال ، فتستعمل الأرجاز ، لتنشيط المهمة . وأما السجع ، فيستعمله الكهان ، ويستخدم في المنافرة والمفاخرة ، وأما المنثور ، أي الكلام المرسل ، الخالي من السجع والازدواج ، فيستعمل في الحمالة ، أي تحمل ديات قوم لا مال لهم ، فيقوم غيرهم بتحمل مبلغ الدية ، وفي مقامات الصلح ، ودفن الأحقاد والصغائن ، الى غير ذلك من حالات . فالسجع ، إذن غير النثر ، وغير

---

١ البيان والتبيين (٣/٥ وما بعدها) .

المزاوجة ، وغـير الرجز . وقد جعل (الجاحظ) الكلام المنثور : أسجاعاً ، وازواجاً ، ومنثوراً[1] . فهذه في نظره أساليب النثر .

وأنا إذ أصف أسلوب النثر عند الجاهليين ، لا أعني اني أثق بصحة هذا النثر المنسوب اليهم ، وأثبت صحة نصه ، وانما أنا أصفه مستنداً في وصفي هذا على المدون المعمول عليهم ، الوارد الينا في بطون الكتب ، لأنه وإن كان في نظرنا مصنوعاً موضوعاً ، لكنه صيغ على كل حال وفق أسلوب الجاهليين ، وعلى نمط كلامهم ، إذ لا يعقل أن يكون الرواة قد اخترعوا تلك الأنماط من الكلام اختراعاً ، وأوجدوها من العدم ايجاداً ، فهم إذ وضعوا على ألسنة أهل الألسنة من العرب ، فإنما وضعوا عن تقليد ومحاكاة، وعلى نمط كلام سابق كان مألوفاً عند أهل الجاهلية الذين أدركوا الاسلام. ودليل ذلك أثره في خطب الخطباء الذين خطبوا أمام الرسول ، وفي خطب الخطباء الذين عاشوا في صدر الاسلام . فأنا حين أرفض النصوص ، لا أزعم انه لم يكن لهم نثر ، وان النثر انما ظهر وعرف في الاسلام ، بل أقر انه قد كان لهم نثر ، وكانت لهم خطب وكان لهم كلام ، ولكن أقول إن هذه النصوص المثبتة المدوّنة ، هي نصوص لا يجوّز العقل أن تكون صحيحة أصيلة مضبوطة ، لما قلته من عدم قدرة الذاكرة على المحافظة على أصالة النثر .

وأود أن أستثني الأمثال الجاهلية من هذا التعميم الذي عممته على نصوص النثر الجاهلي ، فالأمثال بحكم ايجازها وكثرة انتشارها على الألسنة ، ولكونها أداة تعليمية تحفظها الذاكرة ، ولا تخطىء فيها كثيراً ، حافظت لذلك على أصلها ونصها ، ودليل ذلك اننا لا نزال نضرب الأمثال بها حتى اليوم ، ثم إن منها ما قد ضرب به مثلاً في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي ، وفي خطب الخلفاء الراشدين وكتبهم ، ولهذا فنحن لا نبتعد عن العلم إن قلنا بصحتها من حيث النص والمعنى ، أي من حيث الضبط بالكلم ومن حيث المحافظة على المعنى[2] . أما بقية النثر ، فأنا على رأيي من عدم إمكان القول بصحة نصوصه،وإن كنت أوافق على جواز بناء بعض النصوص على معان جاهلية ، فيكون النص في هذه الحالات من وضع

---

١ البيان والتبيين (٤/٢٨) .

٢ بروكلمن ، تأريخ الادب العربي (١/١٢٩) .

االروة ، أما المضمون فجاهلي ، تطور وتزوق حسب الأفواه التي روته ودبجته ، بحيث ظهر على الصورة التي وصلت الينا .

وإذا كان الحال على هذا المنوال ، فأين يا ترى نجد النثر ؟ وجوابي أنك لا تجد النثر الصحيح المنثور بهذه العربية البينة الفصيحة إلا في القرآن الكريم . فالقرآن الكريم ، لكونه كتاب الله وقد دوّن ساعة نزوله ، دوّنه كتبة عند نزول الوحي ، وأخذه عنهم كتبة آخرون وحفظه الحفاظ ، وقرأ الكثير منهم ما كتبه من آي أو ما حفظه منها ومن السور على الرسول ، فأيد قراءتهم،وثبت كتابتهم ، فهو لهذا الكتاب الوحيد المنزل بلسان عربي مبين . لا شبهة في ذلك ولا شك . أرشدنا الى أساليب الجاهليين في فنون القول ، بمخاطبته لهم بلسانهم وبطرق بيانهم ، وبأسلوب محاججتهم ، وضرب لهم الأمثال بأمثالهم ، كي تكون عبرة مقبولة عندهم ، وخاطبهم على قدر عقولهم ، بلسان عربي مبين ، يفهمه كل العرب ، ففيه إذن نجد نثر العرب ، وإن كان هو أبلغ النثر ، وفيه نجد حياة الجاهليين وعقليتهم .

وقد وصف (الجاحظ) أسلوب القرآن بقوله : « خالف القرآن جميع الكلام الموزون والمنثور ، وهو منثور غير مقفى على مخارج الأشعار والأسجاع ، وكيف صار نظمه من أعظم البرهان ، وتأليفه من أكبر الحجج »[1] .

ثم نجد هذا النثر في الحديث ، في الحديث النبوي ، وفي الحديث موضوع وضعيف ، إلا ان فيه ما لا يشك في صحته . وفيه ما روي بالمعنى ، لتجويزهم الرواية عن الرسول بالمعنى ، خشية الخطأ في النص ، والتقول عليه ، ومن تقوّل على رسول الله متعمداً ، تبوأ مقعده في النار . وقد روي الحديث رواية ، أي مشافهة ، غير ان من العلماء من ذكر ان (عبدالله بن عمرو بن العاص) ، كان قد كتب حديث الرسول ، وذلك انه استأذنه في أن يكتب حديثه فأذن له . وروي عنه انه قال حفظت عنه ألف مَثَل ، وروي عن (ابي هريرة) قوله: « ما أجد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أكثر حديثاً مني ، إلا ما كان من عبدالله بن عمرو ، فإنه كان يكتب »[2] . ولكننا لم نسمع بما حل

---

١ البيان والتبيين (٣٢) ، (انتقاء الدكتور جميل جبر) ، (بيروت ١٩٥٩ م) .
٢ الاستيعاب (٢/٣٣٩) ، (حاشية على الاصابة) ، الاصابة (٢/٣٤٣) ، (رقم ٤٨٤٧) .

بالصحف التي دوّن بها (عبدالله) حديث الرسول ، ولا أدري اذا كان ما روي عنه في المسانيد ، مثل مسند (أحمد بن حنبل) قد نقل من تلك الصحيفة نقلاً أم رواية[1] .

وهناك روايات تذكر ان (همام بن منبه) ، أخذ عن (أبي هريرة) ، حديث رسول الله ، وكتب ما أخذه في صحيفة عرفت بـ (الصحيفة الصحيحة) في مقابل (الصحيفة الصادقة) المنسوبة لعبدالله بن العاص ، ونجد نقولاً منها في البخاري ، وفي مسند (أحمد بن حنبل)[2] . وقد نشرت هذه الصحيفة في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق[3] . وهذه الصحيفة ، إن صح انها من وضع (همام بن منبه) وانها أصيلة ، ذات أهمية كبيرة بالطبع ، لأنها أقدم صحيفة نعرفها في الحديث بعد صحيفة (عبدالله بن عمرو بن العاص) ، وان كانت دونها في المنزلة ، لأنها أخذت عن لسان (أبي هريرة) ، وأخذ (عبدالله) حديثه من فم الرسول ، ومن الجائز أن يكون حديث أبي هريرة بلسانه ، أما حديث (عبدالله) ، فربما كان بلسانه أيضاً ، غير انه كان ينقله من فم الرسول فيحفظه ثم يدونه ، فهو أقرب الى الصحة من صحيفة (همام) . وربما كان (عبدالله) ، قد دوّن حديثه بحضرة الرسول ، فإن هذا الموضوع ، لا زال مجهولاً ، لم يبحث بحثاً علمياً صحيحاً ، وهو ينتظر من الباحثين من يقوم بالبحث عنه .

ويظهر من أحاديث تنسب الى الرسول مثل حديث : « لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن ، فمن كتب عني غير القرآن فليمحه »[4] ، ومن أخبار تنسب الى (أبي بكر) و (عمر) في النهي عن كتابة الحديث ، مثل ما نسبوا الى (عمر) من انه كتب الى الأمصار من كان عنده شيء من الحديث فليمحه ، ومن انه أنشد الناس أن يأتوه بصحف الحديث ، فلما أتوه بها أمر بتخريقها ، ثم قال :

---

١ راجع في موضوع الحديث : أبورية ، أضواء على السنة المحمدية .

٢ مسند الامام أحمد بن حنبل (٢/٣١٢ وما بعدها) ، لقد تحدثت عن « همام بن منبه » في أثناء حديثي عن « موارد تأريخ الطبري » ، المنشور في مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلد الاول فما بعده .

٣ المجلد الثامن والعشرين (١٩٥٣) ، (الجزء الثاني والثالث) ، مصادر الشعر الجاهلي (١٤٦) .

٤ أبورية ، أضواء (٤٦) .

مثناة كمثناة أهل الكتاب ! ومثل ما نسب الى (علي) من قوله : « اعزم على كل من عنده كتاب إلا رجع فمحاه ، فإنما هلك النـــاس حيث تتبعوا أحاديث علمائهم وتركوا كتاب ربهم »[1] ، وأمثال ذلك مما نسب الى الصحابـــة في النهي عن كتابة الحديث ، وفي الحث على تحريق ما قد كان عندهم من صحف وكتب أو إمحائه ، انه قد كان عند الصحابة صحف فيهـا حديث رسول الله كتبت في أيام الرسول وبعده ، كانوا يراجعونها ويستعزون بها ، وكان في بعضها ما يشك في صحته وفي صدوره من الرسول ، ولخوف الرسول وصحابته من أن يأتي يوم تكون فيه تلك الصحف مرجعاً للناس مثل رجوعهم للقرآن ، يتخذونها سنداً لهم، اتخاذ اليهود للمثناة ، أي (المشنا) ، أمـروا باتلافهـا وبالنهـــي عن التدوين . والاكتفاء بالحديث مشافهة ، وبنشره بالرواية . وهي طريقة غير مأمونة أيضاً ، فالتدوين أضمن منها وأسلم ، ولكنها طريقة كانت متبعة في ذلك الحين ، لأسباب لا أستطيع أن أتحدث عنها في هذا المكان ، لأن الحديث عن تدوين حديث رسول الله وعن ورود النهي عن تدوينه يخرجنا عن الحدود المرسومة لهذا الكتاب . على كل فإن أخذ المحدثين بمبدأ رواية حديث الرسول بالمعنى ، كان هو السبب الذي حمل علماء النحو واللغة على عدم الاستشهاد به في شواهد القواعد واللغة ، كما بينت ذلك في موضع آخر من هذا الكتاب .

وفي رسائل الرسول وكتبه ووصاياه وخطبه وأوامره ، وفي خطب الوفود التي كانت تفد عليه ، وفي خطب الصحابة ، أمثلة على طبيعة وأسلوب الخطب عند الجاهليين ، ولا سيما القديم من تلك الخطب الذي ألقاه الخطباء أمام الرسول قبل دخولهم في الاسلام ، فهو في الواقع استمرار لأسلوب الخطاب في الجاهلية ، ألقي بالطريقة المألوفة عندهم التي تمثل التفكير الجاهلي ، والعقلية الجاهليـــة أيام ظهور الاسلام . وإن كنت أشك في صحة كثير من الخطب والرسائل المنسوبة الى الرسول ذلك لأننا إذا درسنا نصوص هذه الرسائل ، نجد أصحاب السير والتواريخ يروونها بصور مختلفة ، وفي اختلافهم هذا ، دلالة على أن الرواة لم ينقلوها من أصـــل مكتوب،وإنما أخذوا النص بطريق المعنى والرواية ، فوقع من ثَمّ هذا الاختلاف. أضف الى ذلك فعل التزوير ، فقد نص المؤرخون وأرباب السير عـلى أن بعض

---

١ المصدر نفسه (٤٦ وما بعدها) .

أهل الكتاب وسادات القبائل والرجال ، قدموا للخلفاء كتباً مزورة فيها إقرار قرار وإحقاق حق ، للمطالبة بتنفيذ ما جاء فيها ، وفي حديث : « من كذب على متعمداً ، فليتبوأ مقعده من النار »[1] ، وحديث آخر يشبهه هو : « إن الذي يكذب عليّ يبني له بيتاً من النار » ، وأحاديث أخرى من هذا القبيل[2] ، دلالة على وقوع الكذب على الرسول في حياته وبعد وفاته .

وقد ورد أن الرسول « حين جاءته وفود العرب ، فكان يخاطبهم جميعاً على اختلاف شعوبهم وقبائلهم وتباين بطونهم وأفخاذهم ، وعلى ما في لغاتهم من اختلاف الأوضاع وتفاوت الدلالات في المعاني اللغوية ، على حين أن أصحابه رضوان الله عليهم ومن يفد عليه من وفود العرب الذين لا يُوجّه اليهم الخطاب كانوا يجهلون من ذلك أشياء كثيرة : حتى قال له علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وسمعه يخاطب وفد بني نهد : يا رسول الله ، نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره؟فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم، يوضّح لهم ما يسألونه عنه مما يجهلون معناه من تلك الكلمات ، ولكنهم كانوا يرون هذا الإختلاف فطرياً في العرب فلم يلتفتوا اليه »[3] .

فإذا كان الأمر من اختلاف لغات العرب على هذا النحو ، وإذا كان الصحابة ومنهم الخلفاء ، وهم على ما هم عليه من فصاحة وبلاغة ، لم يفهموا كلام الوفود ، فهماً صحيحاً ، حتى كان الرسول يفسر لهم ما كان يقوله للوفود ، وما كانت الوفود تقوله له ، فكيف نصدق بصحة نصوص خطبهم وكلامهم ، وقد ألقيت بلهجاتهم الخاصة ، ولم يكن هناك كتبة ولا مدوّنون ، يدونون محاضر جلسات الرسول مع الوفود ، ومحاضر كلامه معهم ، وما كان يقع بحضرته من نقاش وكلام ؟

وأنت إذا راجعت خطب الرسول التي خطبها في (حجة الوداع) تجدها وقد

---

١ خليفة بن خياط ، كتاب الطبقات (١٢٢) ، (تحقيق اكرم ضياء العمري) ، (من كذب علي ، فليتبوأ مقعده من النار) ، « والله ما قال متعمدا ، وأنتم تقولون متعمدا » ، أبورية ، أضواء (٦٢) .

٢ أبورية ، أضواء (٥٩ وما بعدها) .

٣ الرافعي (٣٢٥/١) .

رويت بصور مختلفة[1] ، وفي هذا الاختلاف دلالة بينة على أنها لم تنقل من أصول مكتوبة ، وإنما أخذت من الأفواه ، وإلا لما جاز عقلاً وقوعه أبداً . وسبب ذلك ، أن الناس في ذلك الوقت ، لم يكونوا قد تعودوا لا في الجاهلية ولا في الاسلام اتخاذ كتّاب لتدوين ما كان يقع لهم من أحداث ، ولم يكن عندهم مراسلون يرافقون الملوك والحكّام وسادة القبائل والوفود ، لوصف مواكب الملوك ومشاهدهم وحروبهم ، وخطبهم ومفاوضاتهم مع سادات القبائل . وكذلك كان الحال في الاسلام ، بل ولا رواة لهم ذاكرة قوية ، لحفظ أحاديث المجالس والأحداث ، واذاعتها بين الناس ، لأن العناية بحفظ الأحداث والتواريخ وتخليدها تقتضي وجود وعي بأهمية تدوين التأريخ ، ولم يكن هذا الوعي معروفاً آنذاك . ولهذا جاءت أخبار الحوادث عن طريق شهود عيان رووا ما شاهدوه لأصحابهم، كما يروي أي إنسان ما قد يقع له من أمور لأصدقائه،وهؤلاء قصوا تلك المرويات على أصحابهم وعلى من جاء بعدهم بلغتهم ، وبهذه الطريقة وصلت الأخبار الى المدوّنين عندما بُدىء بالتدوين.وليس من المعقول بالطبع محافظة الذاكرة على النصوص الأصلية للخطب وللكلام ، ولقول الراوي الأول للأحداث . وليس من المعقول أيضاً وصولها سالمة نقية من كل تغيير أو تبديل أو تحريف ، ولا سيما في الأمور العاطفية التي تضرب على أوتار العصبية . ولهذه الأسباب وغيرها فنحن لا نستطيع الاطمئنان إلى صحة هذه الأخبار المروية من الأفواه ، لما يحتمل أن يكون قد وقع فيها من زيف أو من تحريف عن عمد أو من غير عمد . ولو كانت الذاكرة تعي كل كلام وتحفظ كل حديث بالحرف والكلمة ، لما أجاز العلماء رواية حديث الرسول بالمعنى ، إذ كان من الصعب حفظه بالحرف . ولا أظن أن أحداً يقول إن حفظ أخبار الجاهلية ونصوص كلام رجالها،أهم عند العرب من حفظ حديث الرسول .

وأنا أشك في صحة أكثر ما نسب الى (مسيلمة) من كلام وقرآن . وهو (مسيلمة بن حبيب الحنفي) ، المكنى بـ (أبي ثمامة) ، والمنعوت بين

---

١ راجع كتب السير والتواريخ في خطبة الوداع ، الطبري (٣/١٤٩ وما بعدها) ، البيان والتبيين (٢/٣١) ، ابن الاثير (٢/١٤٦) .

المسلمين بـ (الكذاب)[1] . واسمه الصحيح (مسلمة) ، وقد صغر في الاسلام، ازدراءً بشأنه . فقد روي انه صنع قرآناً مضاهاة للقرآن ، غير انهم لم يتحدثوا بشيء عن قرآنه . واذا صح ما ذكره أهل الأخبار من انه ادعى الوحي بمكة أو باليمامة قبل الاسلام ، وانه نزّل على نفسه آيات زعم انها تنزيل من الرحمان ، فيكون قد باشر بتأليف قرآنه قبل الوحي[2] .

وذكر ان في حقه نزلت الآية : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ، أو قال أوحي إليّ ، ولم يوح اليه بشيء . ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله »[3] . فقد ذكر علماء التفسير ان عبارة : « أو قال أوحي إليّ ولم يوح اليه بشيء »، نزلت في مسيلمة أخي بني عدي بن حنيفة ، فيما كان يسجع ويتكهن به . ومن قال : سأنزل مثل ما أنزل الله نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، أخي بني عامر بن لؤي ، كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم ، وكان فيما يملي : عزيز حكيم ، فيكتب : غفور رحيم فيغيره ، ثم يقرأ عليه كذا وكذا لما حوّل، فيقول : نعم سواء ، فرجع عن الاسلام ، ولحق بقريش . وقال لهم : لقد كان ينزل عليه عزيز حكيم ، فأحوله ثم أقول لما أكتب،فيقول : نعم سواء »[4].

وكان من حديث (مسيلمة) ان قريشاً قالت للرسول : « بلغنا انه انما يعلمك هذا رجل باليمامة ، يقال له الرحمان ، وإنا والله ما نؤمن بالرحمان أبداً »[5] ، وذكر أهل الأخبار ان قريشاً « حين سمعت : بسم الله الرحمن الرحيم ، قال قائلهم : دق فوك ، انما تذكر مسيلمة رحمان اليمامة »[6] ، لأنهم كانوا قد سمعوا بدعوته الى عبادة الرحمان ، قبل نزول الوحي على الرسول . وورد « انهم لما

---

١ « وهو مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب بن الحارث بن عبد الحارث بن هفان ابن ذهل ، بن الدول بن حنيفة . يكنى أبا أمامة ، قيل أبا هارون ، وكان يسمى بالرحمان فيما روى عن الزهري قبل مولد عبدالله والد النبي » ، الروض الانف (٢/٣٤٠) ، الاشتقاق (٢٠٩) ، (كذاب اليمامة) ، مروج الذهب (٢/٣٠٣) ، المعارف (٩٧ ، ١٧٠ ، ٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٤٠٥ ، ٤٢٤ ، ٤٥٤) ، اليعقوبي (٢/١٢٠) ، (النجف ١٩٦٤ م) .

٢ تحدثت عنه بتفصيل في الجزء السادس من هذا الكتاب في فصل : أنبياء جاهليون .

٣ الانعام ، الرقم ٦ ، الاية ٩٣ .

٤ تفسير الطبري (٧/١٨١) .

٥ تفسير الطبري (١٥/١١١) .

٦ اليعقوبي (١/١٢٠) ، الروض الانف (٢/٣٤٠) .

سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم يذكر الرحمن قالت قريش : أتدرون ما الرحمن ؟ هو كاهن اليمامة ! » . وقد قالوا لمسيلمة : رحمان ، وقالوا أيضاً فيه : رحمان اليمامة [1] .

وأنا لا أستبعد احتمال مجيئه الى مكة قبل الاسلام . فقد ذكر انه تزوج (كبشة) (كيسة بنت الحارث بن كريز بن حبيب بن عبد شمس)[2] ، وهي من مكة ، فلا يعقل عدم مجيئه الى مكة وإقامته بها بعض الوقت ، ومجيئه اليها بين الحين والحين . ومن هنا كان لأهل مكة علم بدعوة مسيلمة الى عبادة (الرحمان) .

وقد زعم أنه « كان يقول : أنا شريك محمد في النبوة ، وجبريل عليه السلام ينزل عليّ كما ينزل عليه ، وكان رَجّال بن عنفوة من رائشي نبله ، والحاطبين في حَبله ، والساعين في نصرته . وكان مسيلمة يقول : يا بني حنيفة ، ما جعل الله قريشاً بأحق بالنبوة منكم ، وبلادكم أوسع من بلادهم ، وسوادكم أكثر من سوادهم ، وجبريل ينزل على صاحبكم مثل ما ينزل على صاحبهم . ولما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وجد الناس يتذاكرونه وما يبلغهم عنه من قوله وقول بني حنيفة فيه ، فقام يوماً خطيباً ، فقال بعد حمد الله والثناء عليه . أما بعد ، فإن هذا الرجل الذي تكثرون في شأنه كذّاب في ثلاثين كذّاباً قبل الدجال ، فسماه المسلمون مسيلمة الكذاب ، وأظهروا شتمه وغيبه وتصغيره ، وهو باليمامة يركب الصعب والذّلول في تقوية أمره ، ويعتضد برجال بن عنفوة ، وهو ينصره ويذب عنه ويصدق أكاذيبه ، ويقرأ أقاويله التي منها : والشمس وضحاها ، في ضوئها ومنجلاها . والليل إذا عداها ، يطلبها ليغشاها ، فأدركها حتى أتاها وأطفأ نورها فمحاها »[3] .

« ومنها : سبح اسم ربك الأعلى ، الذي يسّر على الحُبلى ، فأخرج منها نسمة تسعى ، من بين أحشاء ومعى ، فمنهم من يموت ويدس في الثرى ، ومنهم

---

١ الخزانة (٢/٢٨٥) ، (هارون) .

٢ كتاب نسب قريش (٢٠) ، الروض الانف (٢/١٩٨ ، ٣٤١) ، المحبر (٤٤٠) ، امتاع الاسماع (١/٢٤٧) ، كتاب نسب قريش (١٤٧) ، الجزء السادس من هذا الكتاب (ص ٩٦) .

٣ ثمار القلوب (١٤٦ وما بعدها) ، البيان والتبيين (١/٣٥٩) ، المعارف (١٧٨) ، التنبيه ، للمسعودي (٢٤٧) .

من يعيش ويبقى الى أجل ومنتهى ، والله يعلم السرّ وأخفى ، ولا تخفى عليه الآخرة والأولى .

ومنها : اذكروا نعمة الله عليكم واشكروها ؛ إذ جعل لكم الشمس سراجاً، والغيث ثجاجاً ، وجعل لكم كباشاً ونعاجاً ، وفضة وزجاجاً ، وذهباً وديباجاً ، ومن نعمته عليكم أن أخرج لكم من الأرض رمّاناً ، وعنباً ، وريحاناً ، وحنطة وزؤاناً .

وكان أبو بكر إذا قرع سمعه هذه الترهات يقول : أشهد أن هذا الكلام لم يخرج من إلَه »[1] .

« وكان رجّال بن عنفوة صاحب مسيلمة قدم المدينة مراراً ، وقرأ القرآن وأظهر الايمان ، وأسرّ الكفر . ويروى ان النبي صلى الله عليه وسلم ، بينما هو جالس في أصحابه ، إذ سمع وطئاً من خلفه ، فقال : هذا وطء رجل من أهل النار ، فإذا هو رجّال بن عنفوة . فلما قدم وفد حنيفة على النبي صلى الله عليه وسلم — وفيهم مسيلمة إلا انه لم يلقه — وأظهروا الاسلام وأرادوا الانصراف ، أمر لهم عليه الصلاة والسلام بجوائز كعادته في الوفود ، وقال : هل بقي منكم أحد ؟ قالوا : لا ، إلا رجل منا يحفظ رحالنا — يعنون مسيلمة — فقال صلى الله عليه وسلم : ليس بشرّكم مكاناً . فلما رجع الوفد الى مسيلمة وقد بلغه كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، قال لهم : قد سمعتم قول محمد فيّ : ليس بشرّكم مكاناً ، وقد أشركني في الأمر بعده ، فعليكم به . ولما انصرفوا الى اليمامة أعلن مسيلمة النبوة ، وادعى الشركة ، وفتن أهل اليمامة ، وانقسموا بين مصدّق ومكذّب ، وراض وساخط . وكتب مسيلمة الى النبي صلى الله عليه وسلم ، كتاباً قال فيه : الى النبي محمد رسول الله من مسيلمة رسول الله ، أما بعد ، فإني قد أشركت في الأمر معك ، وان لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ، ولكن قريشاً قومٌ يعتدون ولا يعدلون . وختم الكتاب وأنفذه مع رسولين ، فلما قرىء الكتاب على النبي صلى الله عليه وسلم ، قال لهما : ما تقولان ؟ قالا : نقول ما قال أبو ثمامة ، فقال : أما والله لولا ان الرسل لا يقتلون لقتلتكما .

---

١ ثمار القلوب (١٤٧ وما بعدها) .

وأملى في الجواب : من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

ولما صدر الرسولان الى مسيلمة الكذاب افتعل كتاباً يذكر فيه انه جعل له الأمر من بعده ، فصدّقه أكثر بني حنيفة .

وبلغ من تبركهم به انهم كانوا يسألونه أن يدعو لمريضهم، ويبارك لمولودهم، وجاءه قوم بمولود لهم فمسح رأسه فقرع . وجاءه رجل يسأله أن يدعو لمولود له بطول العمر ، فمات من يومه .

وكان ثمامة بن أثال الحنفي يقشعر جلده من ذكر مسيلمة ، وقال يوماً لأصحابه : إن محمداً لا نبي معه ولا بعده ، كما ان الله تعالى لا شريك له في ألوهيته ، فلا شريك لمحمد في نبوته . ثم قال : أين قول مسيلمة : يا ضفدع نِقي نقي ، كم تنقين ! لا الماء تكدرين ، ولا الشِرب تمنعين، من قول الله تعالى الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم : حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم . غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إلّه إلا هو اليه المصير . فقالوا : أوقح بمن يقول مثل ذلك مع مثل هذا ! »[1] .

وقد روي قول (مسيلمة) في الضفدع على هذا النحو : « يا ضفدع بنت ضفدعين : نقي ما تنقين . نصفك في الماء ونصفك في الطين ، لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين »[2] . وروي أن وفد اليمامة لما قدم على (أبي بكر) بعد مقتل مسيلمة ، « قال لهم : ما كان صاحبكم يقول ؟ فاستعفوه من ذلك ، فقال: لتقولنّ . فقالوا : يا ضفدع نقي كم تنقين ، لا الشارب[3] تمنعين ، ولا الماء تكدرين ... في كلام من هذا كثير . فقال أبو بكر : ويحكم ! إنّ هذا الكلام لم يخرج من إلّ ولا بر ، فأين ذهب بكم »[4] ؟ ، أو أنه قال : « هذا كلام ما أتى من عند إل ، أي من عند الله . وهو في الأسماء الأعجمية إيل ، مثل إسرافيل ، وجبريل ، وميكائيل ، وإسرائيل ، واسماعيل »[5] . وقيل الإلّ

---

١ ثمار القلوب (١٤٨ وما بعدها) .
٢ الرافعي ، تأريخ آداب العرب (٢/١٨٠) .
٣ في الاصل « الشراب » ، وفي الموارد الاخرى الشارب .
٤ الفائق (٣/١٢٢) .
٥ الاكليل (٢/٧) .

الربوبية ، والأصل الجيد والمعدن الصحيح ، أي لم يجيء من الأصل الذي جاء منه القرآن . ويجوز أن يكون بمعنى النسب والقرابة ، من قوله تعالى : « لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة » . وقول حسّان :

لعمرك إن إلّك من قريش كإلّ السقب من رأل النعام[1]

وقد ذكر (الطبري) في مقدمة تفسيره ، أن القرآن لما نزل على الرسول ، « أقر جميعهم بالعجز وأذعنوا له بالتصديق ، وشهدوا على أنفسهم بالنقص ، إلا من تجاهل منهم وتعامى ، واستكبر وتعاشى ، فحاول تكلف ما قد علم أنه عنه عاجز ، ورام ما قد تيقن أنه غير قادر عليه ، فأبدى من ضعف عقله ما كان مستوراً ومن عيّ لسانه ما كان مصوناً ، فأتى بما لا يعجز عنه الضعيف الأخرق ، والجاهل الأحمق ، فقال : والطاحنات طحناً ، والعاجنات عجناً ، فالخابزات خبزاً ، والثاردات ثرداً ، واللاقمات لقماً ... ونحو ذلك من الحماقات المشبهة دعواه الكاذبة »[2] . والطبري وإن لم يصرح باسم قائل هذه الحماقات ، لكنه قصد به مسيلمة من غير شك .

أما أن تلك الآيات آيات قالها (مسيلمة) حقاً ، فتلك قضية لا يمكن إثباتها ، فلما قتل ، وضع أصحابه عليه أموراً كثيرة ، قد يكون في جملتها هذه الآيات . أما قرآنه الذي قيل إنه وضعه يضاهي به القرآن ، فقد هلك بهلاكه ، ولم أجد أحداً ذكر أنه وقف عليه ، ونقل منه ، ولعلّه كان كلاماً لم يسجل في حياة مسيلمة ، وإنما كان محفوظاً في صدر صاحبه وفي صدور أتباعه ، ودخل من دخل من أصحابه في الاسلام طمس أثر ذلك القرآن .

وقد دوّن (الرافعي) الآيات التي أخذتها من تفسير الطبري ، على هذه الصورة: « والمُبذرات زَرعاً ، والحاصدات حصداً ، والذاريات قمحاً ، والطاحنات طحناً ، والعاجنات عجناً ، والخابزات خبزاً ، والثاردات ثرداً ، واللاقمات لقماً ، إهالة وسمناً ... لقد فضلتم على أهل الوبر ، وما سبقكم أهل المدر ، ريفكم فامنعوه ،

---

١ الفائق (٣/١٢٣) .

٢ تفسير الطبري (١/٥) .

والمُعتر فآووه ، والباغي فناوئوه »[1] ..

ونسب (الرافعي) له قوله : « والشاءِ وألوانها ، وأعجبها السود وألبانها ، والشاة السوداء ، واللبن الأبيض ، انه لعجب محض ، وقد حرم المذق فما لكم لا تمجعون .

وقوله : « الفيلُ ما الفيل ، وما أدراك ما الفيل ، له ذنب وبيل ، وخرطوم طويل » . وروي انه « جعل يسجع لهم الأساجيع ويقول لهم فيما يقول مضاهاة للقرآن : لقد أنعم الله على الحبلى ، أخرج منها نسمة تسعى ، من بين صفاق وحشا »[2] ، أو انه قال : « ألم ترَ الى ربك كيف فعل بالحبلى ، أخرج منها نسمة تسعى ، من بين صفاق وحشى »[3] . روي انه قال هذه الآيات لسجاح لما أراد الدخول بها ، فقالت : « وماذا أيضاً ؟ قال : أوحى إليّ : ان الله خلق النساء أفراجاً ، وجعل الرجال لهن أزواجاً ، فنولج فيهن قُعساً إيلاجاً ، ثم نخرجها اذا نشاء إخراجاً ، فينتجن لنا سخالاً انتاجاً . قالت أشهد انك نبي ، قال : هل لك أن أتزوجك فآكل بقومي وبقومك العرب ! قالت : نعم ، قال :

ألا قومي الى النيك فقد هُيي لك المضجع
وإن شئتِ ففي البيت وإن شئت ففي المخدع
وإن شئتِ سلقنـاكِ وإن شئت على أربع
وإن شئـت بثلثيـه وإن شئت به أجمع

قالت : بل به أجمع . قال بذلك أوحى إليّ . فأقامت عنده ثلاثاً ثم انصرفت الى قومها ، فقالوا : ما عندك ؟ قالت : كان عـلى الحق فاتبعته فتزوجته ، قالوا : فهل أصدقك شيئاً ؟ قالت : لا ، قالوا : ارجعي اليه ، فقبيح بمثلك أن ترجع بغير صداق ! فرجعت ، فلما رآها مسيلمـة أغلق الحصن ، وقال : ما لك ؟ قالت أصدقني صداقاً ، قال : من مؤذنك ؟ قالت : شبث بن ربعي

---

١ تأريخ آداب العرب (٢/١٧٩) .
٢ سيرة ابن هشام (٢/٣٤١) ، (حاشية على الروض) ، ابن كثير ، البداية (٦/٣٢٦) ، الباقلاني ، اعجاز (٢٤٠) .
٣ الباقلاني ، اعجاز (٢٤٠) .

الرياحي ، قال : عليَّ به ، فجاء ، فقال : نادِ في أصحابك ان مسيلمة بن حبيب رسول الله قد وضع عنكم صلاتين مما أتاكم به محمد : صلاة العشاء الآخرة وصلاة الفجر »[1] . وأما (سيف) فذكر انه صالحها « على أن يحمل اليها النصف من غلاّت اليمامة ، وأبت إلا السنة المقبلة يسلفها ، فباح لها بذلك ، وقال : خلفي على السلف من يجمعه لكِ ، وانصرفي أنت بنصف العام ، فرجع فحمل اليها النصف ، فاحتملته وانصرفت به الى الجزيرة »[2] .

وذكر أن (سجاح) لما دخلت قبة (مسيلمة) ، « قالت له : اخبرني بما يأتيك به جبريل ؟ فقال لها : اسمعي هذه السورة : انكن معشر النساء خلقن أمواجاً ، وجعل الرجال لكن أزواجاً ، يولجن فيكن إيلاجاً ، لا ترون فيه فتوراً ولا إعوجاجاً ، ثم يخرجونه منكن إخراجاً ، فقالت له : صدقت ، والله إنك لنبيّ مرسل » ، وهي قصة أخذت من موارد سابقة ، مثل الطبري ، غير أنها غيرت فيها بعض التغيير ، تنتهي بأنه رفع عن قومها صلاة العشاء والصبح لأجل المهر[3] .

وزعم أن « من قرآن مسيلمة الذي يزعم أنه نزل عليه ، لعنة الله عليه : والنازعات نزعاً ، والزارعات زرعاً ، والحاصدات حصداً ، والذاريات ذروا ، فالطاحنات طحناً ، والنازلات نزلاً ، فالجامعات جمعاً ، والعاجنات عجناً ، فالخابزات خبزاً ، والثاردات ثرداً ، فالآكلات أكلاً ، والماضغات مضغاً ، فالبالعات بلعاً »[4] .

وقد اتخذ قتل (مسيلمة) فخراً ، فادعى قتله بنو عامر بن لؤي ؛ وادعى بعض الخزرج قتله ، وادعى (بنو النجار) قتله ، وادعى (حبشي) قاتل حمزة قتله ، وكان (معاوية يدعي قتله) ويدعي ذلك له (بنو أمية) . وذكر أن (عبد الملك بن مروان) قضى لمعاوية بقتل مسيلمة[5] ، وهو قضاء سياسي لا أصل له بالطبع .

---

١ الطبري (٣/٢٧٣ وما بعدها) .
٢ الطبري (٣/٢٧٥) .
٣ نزهة الجليس (١/٤٧٣ وما بعدها) .
٤ نزهة الجليس (١/٤٧٤) .
٥ البلاذري ، فتوح (٩٩) .

ويظهر ان بني حنيفة بقوا على تعلقهم بمسيلمة ، حتى بعد مقتله وذهاب أمره. ففي خبر ينسب الى (ابن مُعَيْز) السعدي انه مـر على مسجد بني حنيفة ، فسمعهم يذكرون (مسيلمة) ، ويزعمون انه نبي ، فأتى (ابن مسعود) فأخبره ، فبعث اليهم الشرط ، فجاءوا بهم فاستتابوا فخلي عنهم ، وقدم (ابن النواحة) فضرب عنقه[1] . هذا ، ويدل تعلق (بني حنيفة) وغيرهم من عرب اليمامة بمسيلمة ، واستماتتهم في الدفاع عنه ، وتذكرهم له حتى بعد هلاكه ، على انه كان شخصية مؤثرة قوية ، سحرت أتباعها ، حتى انقادوا له هذا الانقياد. وقد نص (ابن حجر) على قتل (ابن مسعود) لابن النواحة ، إلا انه لم يذكر ان ذلك كان بسبب اعتقاده بنبوة (مسيلمة) ، وانما ذكر انه « كان قد أسلم ثم ارتد فاستتابه عبدالله بن مسعود ، فلم يتب فقتله على كفره وردّته »[2]. واسم (ابن النواحة) (عبادة بن الحارث) أحد بني عامر بن حنيفة[3] .

ويروى ان (الأخطل) الضبعي ، قال في مسيلمة :

لهفاً عليك أبا ثمامة لهفاً على رُكْنَيْ ثمامه
كم آيةٍ لك فيهمُ كالبرق يلمع في غمامه

وكان (الضبعي) شاعراً ، زعم انـه ادعى النبوة ، وكان يقول : لمضر صدر النبوة ، ولنا عجزها ، وقد ضرب عنقه (عمر بن هبيرة) ، ومن شعره:

لنا شطر هذا الأمر قسمة عادل متى جعل الله الرسالة تُرتبا[4]

أي راتبة في واحد .

وسئل (الأحنف بن قيس) رأيه في مسيلمة ، فقال : « ما هو بنبي صادق ولا بمتنبيء حاذق »[5] .

---

١ الفائق (٦٠٣/١) ، الاصابة (١٤٣/٣) ، (رقم ٦٦٥١) .
٢ الاصابة (١٤٣/٣) ، (رقم ٦٦٥١) .
٣ البلاذري ، فتوح (٩٧) .
٤ المؤتلف (٢٢) .
٥ أمالي المرتضى (٢٩٢/١) .

وأنا لا استبعد ما نسب الى (مسيلمة) من دعوى نزول الوحي عليه ، وتسمية ذلك الوحي (قرآناً) أو كتاباً أو سفراً ، أو شيئاً آخر ، ولكني استبعد صحة هذه الآيات التي نسبتها الكتب اليه ، وأرى أن أكثرها ورد بطريق آحاد ، فلما نقلها الخلف عن السلف ، وكثر ورودها في الكتب ظهرت وكأنها أخبار متواترة ، وصارت في حكم ما أجمع عليه . وقد رويت بعض الآيات مثل : آية الضفدع ، بصور متعددة مختلفة ، مع أنها أشهر وأعرف آية أو آيات نسبت اليه، فما بالك بالآيات الأخرى ، ثم إننا نجد الرواة يناقضون أنفسهم كثيراً فيما نسبوه اليه ، وبعضه مما لا يعقل صدوره من مسيلمة ، مثل شعره الذي قاله لسجاح ، حين أراد الدخول بها . وهل يعقل أن يقول إنسان يدعي النبوة مثل هذا الكلام الفاحش أمام الناس ، ليدون ويسجل عليه !

وقد ذكر (ابن النديم) أن لابن الكلبي مؤلفاً خاصاً ألفه في مسيلمة دعاه : « كتاب مسيلمة الكذاب » ، لم يصل الينا ، وله كتاب آخر في بني حنيفة اسمه: « كتاب أيام بني حنيفة » ، وهم قوم مسيلمة ، وكتاب دعاه : « كتاب أيام قيس بن ثعلبة »[1] .

وزعم أن من كلام (طليحة) الأسدي الذي قاله لأصحابه : « والحمام واليمام، والصرد والصوّام ، قد صمن قبلكم بأعوام ، ليبلغن ملكنا العراق والشام »[2] .

وروى (الطبري) سجعاً من سجع (سجاح) ، وكانت نصرانية راسخة في النصرانية ، قد علمت من علم تغلب ، هو قولها لأتباعها : « عليكم باليمامة ، ودفوا دفيف الحمامة ، فإنها غزوة صرامة ، لا يلحقكم بعدها ملامة » ، فلما جاءت مع قومها اليمامة ، قال لها مسيلمة : « لنا نصف الأرض ، وكان لقريش نصفها لو عدلت ، وقد رد الله عليك النصف الذي ردت قريش ، فحباك به ، وكان لها لو قبلت . فقالت : لا يرد النصف إلا من حنف ، فاحمل النصف الى خيل تراها كالسهف . فقال مسيلمة : سمع الله لمن سمع ، وأطمعه بالخير إذ طمع، ولا زال أمره في كل ما سرّ نفسه يجتمع . رآكم ربكم فحياكم ، ومن وحشة

---

١ الفهرست (ص ١٤٨) .

٢ الطبري (٣/٢٦٠) ، (دار المعارف) .

خلاكم ، ويوم دينه أنجاكم ، فأحياكم علينا من صلوات معشر أبرار ، لا أشقياء ولا فجّار ، يقومون الليل ويصومون النهار ، لربكم الكبـــار ، رب الغيوم والأمطار .

وقال أيضاً : لمّا رأيت وجوههـــم حسُنت ، وأبشارهم صفت ، وأيديهم طفلت ، قلت لهم : لا النساء تأتون ، ولا الخمر تشربون ، ولكنكم معشر أبرار تصومون يوماً ، وتكلفون يوماً ، فسبحان الله ! اذا جاءت الحياة تحيون ، والى ملك السماء ترقون ! فلو انها حية خردلة ، لقام عليها شهيد يعلم ما في الصدور ، ولأكثر الناس فيها الثبور .

وكان مما شرع لهم مسيلمة ان من أصاب ولداً واحداً عقيماً لا يأتي امرأة الى أن يموت ذلك الابن فيطلب الولد ، حتى يصيب ابناً ثم يمسك ، فكان قد حرّم النساء على من له ولد ذكر »[1] .

وبلاغة الكلام معروفة عند الجاهليين ، فقد كانوا ينعتون المتكلم الجيد بالبليغ ، وفي القرآن الكريم : « وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً »[2] . والبليغ الفصيح الذي يبلغ بعبارته كنه ضميره ونهاية مرامه[3] . سأل (معاوية) (صحار بن عياش) العبدي[4] ، ما البلاغة ؟ فقال : لا تخطىء ولا تبطىء . أو أنه قال له : مـــا البلاغة ؟ قال : الإيجاز . قال : ما الايجاز ؟ قال : أن لا تبطىء ولا تخطىء . وكان قد دهش من فصاحته وبلاغته ، فقال له : ما هذه البلاغة فيكم ؟ قال : شيء يختلج في صدورنا فنقذفه كما يقذف البحر بزبده[5] .

وقد ميز (الطبري) وغيره من العلماء بين الخطباء وبين الفصحاء والبلغـاء ، فالخطباء هم من جماعة صناع الكلام ، وصناعتهم صناعة الخطب ، وذكر بعدهم (البلغاء) ، صناع البلاغة ، ثم (الشعر) والفصاحة ، فجعل للشعر في مقابل الفصاحة ، ثم السجع والكهانة ، وقال : « كل خطيب منهم وبليغ ، وشاعر منهم

---

١ الطبري (٣/٢٧١ وما بعدها) .
٢ النساء ، الرقم ٤ ، الاية ٦٢ .
٣ تاج العروس (٦/٤) ، (بلغ) .
٤ « صحار بن عباس ؟ » .
٥ تاج العروس (٦/٥) ، (بلغ) ، الاصابة (٢/١٧٠) ، (رقم ٤٠٤١) .

وفصيح »[1]، فالخطيب هو الذي يخطب باسم الوفد أو القوم ، وله لذلك عندهم مقام جليل ، لأنه عقل من يتكلم باسمهم ولسانهم ، والبليغ من يتحدث ويتكلم في المجالس والأندية ، بكلام بليغ رصين ، والفصيح من يفصح ويعرب بلسانه، ونجدهم يقولون أحياناً خطيب فصيح ، وشاعر فصيح ، فالفصاحة صفة تلحق بالمتكلم ناثراً كان أو كان شاعراً .

وللبيان عند العرب مقام كبير . وقد أشاد القرآن بالبيان ، فقال : « الرحمن علّم القرآن ، خلق الانسان ، علمه البيان »[2] . فجعل البيان في جملة ما علمه الله الانسان . ونعت القرآن بأنه نزل « بلسان عربي مبين »[3] ، ووصف القرآن بقوله : « طس،تلك آيات القرآن وكتاب مبين »[4] . وينسب الى الرسول قوله: « إن من البيان لسحراً »[5] . وورد في المثل : « جرح اللسان كجرح اليد . هو في شعر امرىء القيس » . يضرب في تأثير الوقيعة[6] ، وفي أثر القول في فعل الناس .

وروي أن ذوي الفهم والعلم من قريش تأثروا ببلاغة القرآن وفصاحته، فروي أن (الوليد بن المغيرة) ، وكان من بلغاء قريش وفصائحهم ومن علمائهم بالشعر، لما دخل على (أبي بكر) يسأله عن القرآن « فلما أخبره خرج على قريش . فقال : يا عجباً لما يقول ابن أبي كبشة ، فوالله ما هو بشعر ، ولا بسحر ، ولا بهذي من الجنون » ، أو أنه قال لما سمع القرآن : « والله لقد نظرت فيما قال هذا الرجل ، فإذا هو ليس بشعر وان له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وانه ليعلو وما يعلى،وما أشك أنه سحر » ، أو أنه قال: « سمعت قولاً حلواً أخضر مثمراً ، يأخذ بالقلوب . فقالوا : هو شعر . فقال : لا والله ما هو بالشعر ، ليس أحد أعلم بالشعر مني ، أليس قد عرضت عليّ الشعراء شعرهم ! نابغة وفلان وفلان . قالوا : فهو كاهن . فقال : لا والله ما هو بكاهن ، قد عرضت

---

١ تفسير الطبري (١/٥) .
٢ سورة الرحمن ، تفسير الطبري (٢٧/٦٧) .
٣ النحل ، الاية ١٠٣ ، الشعراء ، الاية ١٩٥ .
٤ النمل ، الاية ١ .
٥ البيان والتبيين (١/٣٤٩) ، العسكري ، جمهرة (١/١٣) .
٦ الزمخشري ، المستقصى (٢٠/٥٠) ، (رقم ١٨٧) .

عليّ الكهانة . قالوا : فهذ سحر الأولين اكتتبه . قال : لا أدري إن كان شيئاً فعسى هو اذا سحر يؤثر »[1]، او أنه قال أشياء اخرى من هذا القبيل، اتفقت في المعنى والمقصد ، واختلفت في العبارات .

كما روي أن قوماً من قريش ومن غيرهم ، أسلموا بتأثير بيان القرآن عليهم، فقد روي ان (عمر بن الخطاب) أسلم على ما يقال حين سمع القرآن . روي عنه انه قال : « خرجت أتعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجدته قد سبقني الى المسجد ، فقمت خلفه ، فاستفتح سورة الحاقة ، فجعلت أتعجب من تأليف القرآن . فقلت هذا والله شاعر ، كما قالت قريش . فقرأ : انه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر ، قليلاً ما تؤمنون . فقلت كاهن . قال : ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون حتى ختم السورة . قال : فوقع الاسلام في قلبي كل موقع »[2] . وهي رواية تخالف ما جاء في خبر اسلامه ، من انه كان قد خرج يريد قتل الرسول ، فتلقاه (نعيم بن عبدالله) النحّام ، وكان من المسلمين ، فقال له : أين تريد يا عمر ؟ فقال له : « اريد محمداً هذا الصابىء الذي فرّق أمر قريش وسفّه أحلامها ، وعاب دينها وسب آلهتها ، فاقتله » ، فقال له (نعيم) : « أفلا ترجع الى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ قال : وأي أهل بيتي ؟ قال : ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو وأختك فاطمة بنت الخطّاب ، فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه فعليك بهما » ، فرجع عمر عامداً الى اخته وختنه وعندهما (خباب بن الأرت) معه صحيفة فيها (طه) يقرئهما اياها ، فلما سمعوا حس عمر ، أخذت (فاطمة) الصحيفة . فلما دخل (عمر) ، قال : ما هذه الهينمة التي سمعت ؟ قالا : ما سمعت شيئاً ، ثم قال لأخته : اعطني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأونها أنظر ما هذا الذي جاء به محمد . فأبت أخته اعطاءها إلا أن يغتسل ، فاغتسل عمر ، فأعطته الصحيفة وفيها (طه) فقرأها وتأثر بها فأسلم[3] .

---

١ تفسير الطبري (٢٩/٩٨ وما بعدها) ، سورة المدثر .

٢ الاصابة (٢/٥١٢) ، (رقم ٥٧٣٨) ، الروض الانف (١/٢١٨) ، ورووا له شعرا ، ذكروا أنه قال بعد اسلامه ، رواه « ابن اسحاق » الروض الانف (١/٢١٨).

٣ ابن هشام (١/٢١٦ وما بعدها) ، (حاشية على الروض) ، الروض الانف (١/٢١٦) .

ورووا أن (سويد بن الصامت) ، صاحب صحيفة لقمان ، كان ممن أعجب بالقرآن ، ورووا أن (جبير بن مطعم بن عديّ بن نوفل) ، وكان من أكابر قريش ومن علماء النسب ، قدم على النبيّ ، فسمعه يقرأ (الطور) ، فأثرت القراءة فيه ، وقد أسلم فيما بعد ، بين الحديبية والفتح ، وقيل في الفتح[1] .

والفصاحة في معنى البلاغة ، فهي مرادف لها في الاستعمال . والفصيح هو البين في اللسان والبلاغة ، ولسان فصيح ، أي طلق[2] . وقد اشتهر (قس بن ساعدة الايادي) في الفصاحة حتى ضرب به المثل فيها ، فقيل : أفصح من قس ، وأنطق من قس[3] ، وأبين من قس ، أي أفصح[4] ، وأبلغ من قس . وقد ذكره (الأعشى) بقوله :

وأبلغ من قسّ وأجرأ من الذي بذي الغيل من خفان أصبح خادرا

كما ذكره الحطيئة بقوله :

وأبلغ من قس وأمضى إذا مضى من الريح إذ مسّ النفوس نكالها[5]

ونسبوا الى (قس) قوله ينصح ولده : « إنّ المعا تكفيه البقلة . وترويه المذقة ، ومن عيّرك شيئاً ففيه مثله ، ومن ظلمك وجد من يظلمه ، ومتى عدلت على نفسك عَدَل عليك من فوقك ، وإذا نَهَيْتَ عن شيء فانْهَ نفسك ، ولا تجمع ما لا تأكل ، ولا تأكل ما لا تحتاج اليه ، وإذا ادخرت فلا يكونَنّ كنزك إلا فعلك . وكن عف العيلة ، مشترك الغنى ، تسد قومك . ولا تشاورن مشغولاً وإن كان حازماً ، ولا جائعاً ، وإن كان فهماً ، ولا مذعوراً وإن كان ناصحاً ولا تضعنّ في عنقك طوقاً لا يمكنك نزعه إلا بشق نفسك . وإذا خاصمت فاعدل ،

---

١ الاصابة (٢٢٧/١) ، (رقم ١٠٩١) ، الاستيعاب (٢٣٢/١ وما بعدها) .

٢ تاج العروس (١٩٧/٢) ، (فصح) .

٣ الزمخشري ، المستقصى (٣٩٣/١) ، (رقم ١٦٧٧) .

٤ المصدر نفسه (٣٢/١) ، (رقم ٩٩) ، العسكري ، جمهرة (٢٤٩/١) ، (رقم ٣٣٦) .

٥ المستقصى (٢٩/١) ، (رقم ٨٨) .

وإذا قلت فاقتصد . ولا تستودعن أحداً دينك وإن قربت قرابته ، فإنك اذا فعلت ذلك لم تزل وجلاً ، وكان المستودَع بالخيار في الوفاء والغدر ، وكنت له عبداً ما بقيت . وإن جنى عليك كنت أولى بذلك ، وان وَفى كان الممدوح دونك»[1].

وقد اشتهرت (إياد) بالفصاحة والبيان ، وبقدرة في اللسان . وقد ظهر منهم جملة خطباء[2] . واشهرت (بنو أسد) بالخطابة كذلك ، قال (يونس بن حبيب) : « ليس في بني أسد إلا خطيب ، أو شاعر ، أو قائف ، أو زاجـــر ، أو كاهن ، أو فارس . قال : وليس في هذيل إلا شاعر أو رام ، أو شديد العدو »[3] .

والآن ، وبعد أن انتهينا من الكلام على النثر ، نقول هل كان للجاهليـــين أدب منثور ؟ أي مدونات من الأدب المنثور . لقد ذهب البعض الى انه لو كان للجاهليين أدب منثور مدون ، لعدّ عجيباً اختفاء آثاره هذا الاختفاء الكلي، حتى من أحاديث العرب المنقولة[4] . والواقع ان من غير الممكن في الوقت الحاضر البت علمياً في هذا الموضوع ، لأننا لا نملك أدلة علمية ، لنستنبط منها أحكاماً تؤيد أو تنفي وجود التدوين في الجاهلية . أما مسألة عدم ورود نصوص أدبية منثورة الينا ، أو عدم ورود إشارات الى وجودها في الجاهلية ، فإنها أمور لا يمكن أن تكون حجة على اثبات عـــدم وجود التدوين عند الجاهليين ، إذ لا يجوز انهـــا كانت ، ولكنها تلفت ، بسبب كونها كانت مكتوبة على مواد سريعة التلف ، فهلكت ، كما هلكت مدونات صدر الاسلام ، حيث لم يصل من أصولها إلا النزر اليسير ، وهو نزر يشك في أصالته وصحته .

وذهب بعض الى وجود أدب منثور ، إذ لا يعقل وجود أدب منظوم ، ثم لا يكون للعرب أدب منثور . ويتجلى طراز هذا الأدب في الأمثلة والحكم المنسوبة

---

١ أبو أحمد الحسن بن عبدالله العسكري ، المصـــون في الادب (الكويت ١٩٦٠) ، (ص ١٧٩ وما بعدها) .

٢ البيان والتبيين (١/٤٢ وما بعدها) .

٣ البيان والتبيين (١/١٧٤) .

٤ هاملتون جب ، دراسات في حضارة الاسلام (ص ٢٩٤ وما بعدها) ، (دار العلم للملايين) ، (بيروت ١٩٦٤) .

الى الجاهليين . أما مؤلفات وكتب ، وصحف مدونة فلم يصل منها الينا أي شيء. ولكن ذلك لا ينفي عدم وجودها عند أهل الجاهلية . وقد تحدثت عن موضوع التدوين عند الجاهليين في موضع آخر من هذا الكتاب .

وللجاحظ رأي في كلام العرب ، فهو يرى أن « كل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناةٌ ولا مكابدة ، ولا إجالة فكر ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرف وهمه الى الكلام « فتأتيه المعاني أرسالاً ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً ، ثم لا يقيده على نفسه ، ولا يدرسه أحد من ولده» ، على حين يكون كلام العجم «عن طول فكرة وعن اجتهاد رأي ، وطول خلوة، وعن مشاورة ومعاونة ، وعن طول التفكير ودراسة الكتُب »[1] . وقد حصر أصناف البلاغة عند العرب بالقصيد والرجز ، وهما من الشعر ، وبالمنثور ، وهو الكلام المرسل ، وبالأسجاع ، وبالمزدوج وما لا يزدوج من الكلام[2] .

أما موضوع وجود ترجمات جاهلية عربية للتوراة والانجيل والكتب الشرعية الأخرى المعتبرة عند أهل الكتاب ، فموضوع لم يتفق عليه الباحثون حتى الآن . نعم ورد في الأخبار أن الأحناف كانوا قد وقفوا على كتب الله،وقرأوها بالعبرانية وبالسريانية ، وأنهم كتبوا بهما وبالعربية[3] ، ولكن هذه الأخبار غامضة غير واضحة ، يجب أخذها بحذر ، كما ورد أن بعض الرقيق من أهل الكتاب ممن كان بمكة كان يقرأ كتاب الله ، وكانت قريش ترى رسول الله يمرّ عليه ويجلس عنده ويستمع اليه ، فقالت إنما يتعلم (محمد) منه[4] ، ولكن الأخبار الواردة عن هذا الموضوع لا تشير الى أن هذا الذي زعم أنه كان يعلم الرسول ، كان قد دوّن ترجمة كتب الله ، أو تفاسيرها بالعربية ، وأن الناس قد وقفوا عليها .

وأما ما ورد من أمر (عمرو بن سعد بن أبي وقاص) (عمرو بر سعد

---

١ البيان والتبيين (٣/٢٨ وما بعدها) .

٢ البيان والتبيين (٣/٢٩) .

٣ Georg Graf, Geschichte der Christlischen Arabischen Literatur, I, S. 34

٤ النحل ، الاية ١٠٣ ، تفسير الطبري (١٤/١١٩ وما بعدها) .

بر أبي وقاص) المذكور في تأريخ (ميخائيل السوري) (المتوفى سنة ١١٩٩ للميلاد) البطريق (البطريارك يوحنا) بطريق اليعاقبة ، ترجمة (الانجيل) من السريانية الى العربية ثم ما جاء من وقوع خلاف بين (عمرو) وبين (البطريارك) بشأن الترجمة ، ثم من استعانة (البطريارك) بعد ذلك برجال من (تنوخ) ، و (عاقولا) ، و (طيء) ، كانوا يتقنون العربية والسريانية للقيام بالترجمة . ولترجمة التوراة ، مع رجل يهودي ، فإنه خبر غير مؤكد ، وقد شك فيه بعض الباحثين ، وربما وضع للطعن في (البطريارك) ، وضعه خصومه عليه[1] .

ولم تأت جهود (يومشتارك) وتلامذته بنتائج مؤكدة مقبولة عن اثبات وجود كتب للصلاة بالعربية ، ترجمت من السريانية اليها قبل الاسلام[2] . ومن المحتمل أن رجال الدين كانوا يعظون نصارى العرب في الجاهلية بالعربية ، أما نصوص الصلاة ، فكانوا يلقونها عليهم بالسريانية . وربما كان الحال على هذا المنوال بالنسبة الى رجال الدين المتنقلين مع الأعراب ، فقد كانوا يتنقلون معهم ، يعلمونهم ويرشدونهم بالعربية ، ولكنهم لم يكونوا قد ترجموا كتب الصلوات ترجمة مدونة بلغتهم . وقد ورد ان رجال الدين كانوا يحملون (الدفة) معهم ، حيث تحل القبائل ، لترتيل الصلوات على المذابح المتنقلة ، فعل ذلك رجال الدين مع (بني ثعلب) وقبائل من اليمن وغيرها[3] . وينطبق ما أقوله على العرب الجنوبيين أيضاً ، فلم يعثر حتى الآن على دليل يثبت وجود ترجمات بعربيات جنوبية للتوراة أو الإنجيل أو الكتب الدينية الأخرى . ولكن هناك أخباراً يذكرها أهل الأخبار تشير الى وجود مثل هذه الترجمات ، غير اننا لا نتمكن من التسليم بها ، لما فيها من عناصر تدعو الى الشك في أمرها وعدم إمكان الأخذ بها في الوقت الحاضر .

---

١ Michael der Syrer, chronique de Michel le Syrien, II, p. 326, Paris, 1855, Georg Graf, I, 35, F. Nau, un Colloque du Patriarche Jean avec l'emir des Agaréene in Journal Asiatique, II, Ser., 5, (1915), 225 - 279.
وقد جعله « عمرو بن العاص » ، وجعله « لامانس » « سعيد بن عامر » .

٢ Islamic, 4 (1931), 562. ff.

٣ Georg Graf, I, S. 38.

وقد ورد ان عرب بلاد الشأم من لخم وجذام وغسان وقضاعة وتغلب وكلب وغيرهم ، « وأكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانية »[1] ، وقُصد بالعبرانية السريانية، ولهذا لم يأخذ علماء اللغة عنهم . غير انهم لم يشيروا الى ما كانوا يقرأون، ويظهر انهم قصدوا بذلك الصلوات والكتب المقدسة ، يقرأونها عليهم بالسريانية وربما ترجموا ما قرأوه عليهم الى العربية .

---

١ المزهر (١/٢١٢) .

الفصل الثالث والاربعون بعد المئة

الخطابة

والخطابة وجه آخر من أوجه النشاط الفكري عند الجاهليين. وقد كان للخطيب عندهم ، كما يقول أهل الأخبار ، مقام كبير للسانه وفصاحته وبيانه وقدرته في الدفاع عن قومه والذبّ عنهم والتكلم باسمهم ، فهو في هذه الأمور مثل الشاعر، لسان القبيلة ووجهها . وقد ذكر أهل الأخبار أسماء جماعة من الخطباء ، اشتهروا بقوة بيانهم وبسحر كلامهم ، وأوردوا نماذج من خطبهم . ومنهم من اشتهر بنظم الشعر ، وعدّ من الفحول ، مثل عمرو بن كلثوم[1] .

قال (الجاحظ) : « وكان الشاعر أرفع قدراً من الخطيب ، وهم اليه أحوج لرده مآثرهم عليهم وتذكيرهم بأيامهم ، فلما كثر الشعراء وكثر الشعر صار الخطيب أعظم قدراً من الشاعر »[2] . وذكروا ان الشعراء كانوا في أرفع منزلة عند العرب،وما زال الأمر كذلك حتى أفضى الشعر الى قوم اتخذوه أداة للتكسب وسعوا به في كل مكان ، فوضعوه أمام الملوك والسوقة ، سلعة في مقابل ثمن ، واستجداءً لأكف الناس ، فأنف منه الأشراف وتجنبه السادة ، ونبهت الخطابة . وصار للخطيب شأن كبير ، ارتفع على شأن الشاعر . ولخص (الجاحظ) ذلك بقوله : « كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب ، لفرط حاجتهم الى الشعر

---

١ بلوغ الارب (٣/١٧٤) .
٢ البيان والتبيين (١١٤) ، (انتقاء الدكتور جميل جبر) .

الذي يقيد عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم ، ويهوّل عـلى عدوّهم ومن غزاهم ، ويهيّب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم ، ويهابهم شاعـر غيرهم فيراقب شاعرهم . فلما كثر الشعر والشعراء ، واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا الى السوقة ، وتسرعوا الى أعراض الناس ، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر »[1] .

وكانوا يحبّون في الخطيب أن يكون جهير الصوت ، ويذمون الضئيل الصوت. وأن يكون مؤثراً شديد التأثير في نفوس سامعيه حتى يسحرهم ويأخـذ بألبابهم . وكانوا يجعلون مثل هؤلاء الخطباء ألسنتهم الناطقة إذا تفاخروا أو حضروا المجالس أو تفاوضوا في أمر ، أو أرادوا تأجيج نيران الحروب ، أو عقـد صلح ، أو البت في أي أمر جلـل . ولذلك صارت الخطابة من امارات المنزلة والمكانة ، فصارت في ساداتهم وأشرافهم الذين يتكلمون باسمهم في المحافل والمجامع العظام .

وقد ذكر (الجاحظ) ، أن حمل العصا المخصرة دليل عـلى التأهب للخطبة . والتهيؤ للإطناب والإطالة ، وذلك شيء خاص في خطباء العرب ، ومقصور عليهم، ومنسوب اليهم . حتى انهم ليذهبون في حوائجهم والمخاصر بأيديهم ، إلفاً لها ، وتوقعاً لبعض ما يوجب حملها : والإشارة بها »[2] . ولا يخطب أحدهم إلا وعنده عصاً أو مخصرة ، جرى عـلى ذلك عرفهم حتى في الاسلام . « قال عبد الملك ابن مروان : لو ألقيت الخيزرانة من يدي لذهب شطر كلامي » ، وأراد معاوية سحبان وائل على الكلام ، فلم ينطق حتى أتوه بمخصرة[3] . وكانوا يعتمدون على الأرض بالقسيّ ، ويشيرون بالعصا والقنا ، ومنهم من يأخذ المخصرة في خطب السلم ، والقسي في الخطب عند الخطوب والحروب . وذكر أن من عوائدهم أن يكون الخطيب على زيّ مخصوص في العمامة واللباس[4] . وأن يخطب الخطيب وعلى رأسه عمامة ، علامة المكانة والمنزلة عند الجاهليين . وذكر أيضاً أن من عوائدهم ألا يخطب الخطيب وهو قائد إلا في خطبة النكاح . كما ذكر أن منهم من كان

---

١ البيان والتبيين (١/٢٤١) .

٢ البيان والتبيين (٦١) ، (انتقاء الدكتور جميل جبر) ، (بيروت ،المطبعة الكاثوليكية ١٩٥٩ م) ، البيان والتبيين (٣/١١٧) ، (هارون) .

٣ البيان والتبيين (٣/١١٩ وما بعدها) .

٤ بلوغ الارب (٣/١٥٢ وما بعدها) ، البيان (١/٣٧٠ وما بعدها) .

يخطب وهو على راحلته[1] . وذكر (الجاحظ) أن الشعوبية طعنت على « أخذ العرب في خطبها المخصرة والقناة والقضيب ، والاتكاء والاعتماد على القوس ، والخدّ من الأرض ، والإشارة بالقضيب » . وذكر أن من المستحسن في الخطيب أن يكون جهوري الصوت ، قليل التلفت ، نظيف البزة ، وأن يخطب قائماً على نشز من الأرض ، أو على راحلته ، وأن يحتجز عمامته ، ويكمل هذه الخصال شرف الأصل وصدق اللهجة[2] .

وقد كان بين الخطباء من كان يقول الشعر بالإضافة الى علو شأنه بالنثر. غير ان العادة ، ان الشعراء لم يبلغوا في الخطابة مبلغ الخطباء ، وأن الخطباء دون الشعراء في الشعر . « ومن يجمع الشعر والخطابة قليل »[3] . ومن الشعراء الخطباء: (عمرو بن كلثوم) التغلبي ، و (زهير بن جناب) ، و (لبيد)[4] ، و (عامر ابن الظرب العدواني)[5] .

وذكر (الجاحظ) ان العرب استعملت الموزون ، والمقفى ، والمنثور في مساجلة الخصوم ، والرجز ، في الأعمال التي تحتاج الى تنشيط وبعث همة ، وعند مجاثاة الخصم ، وساعة المشاولة ، وفي نفس المجادلة والمحاورة ، واستعملت الأسجاع عند المنافرة والمفاخرة ، واستعملت المنثور في الأغراض الأخرى[6] ، وقال أيضاً: « وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكرة ولا استعانة ، وانما هو أن يصرف وهمه الى جملة المذهب ، والى العمود الذي اليه يقصد ، فتأتيه المعاني أرسالاً ،وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً ، ثم لا يقيده على نفسه ، ولا يدرسه أحد من ولده . وكانوا أميين لا يكتبون ، ومطبوعين لا يتكلفون ، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ،

---

١ البيان (١/١١٨) ، (٢/٢٠) .

٢ البيان والتبيين (٢٢) ، (بيروت ١٩٥٩ م) ، (انتقاء الدكتور جميل جبر ، المطبعة الكاثوليكية) ، البيان والتبيين (٣/٦ وما بعدها) .

٣ البيان والتبيين (١/٤٥) .

٤ ومن شعر لبيد ، قوله :

وأخلف قسا ليتني ولو أنني ... وأعيا على لقمان حكم التدبر

البيان والتبيين (١/١٨٩ ، ٣٦٥) .

٥ البيان والتبيين (١/٣٦٥) .

٦ البيان والتبيين (٣/٦ وما بعدها ، ٢٨) .

وهم عليه أقدر ، وله أقهر ، وكل واحد في نفسه أنطق ، ومكانه من البيان أرفع ، وخطباؤهم للكلام أوجد ، والكلام عليهم أسهل ، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا الى تحفظ ، ويحتاجوا الى تدارس ، وليس هم كمن حفظ علم غيره، واحتذى على كلام من كان قبله ، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم ، والتحم بصدورهم ، واتصل بعقولهم ، من غير تكلف ولا قصد ، ولا تحفظ ولا طلب»[1].

ويظهر ان من الخطباء من استعمل السجع في خطبه ، ولا سيما في المفاخرات والمنافرات وأمور التحكيم[2] ، وهو في الغالب . ومنهم من كان يستعمل الكلام المرسل وذلك في الأمور الأخرى . ولغلبة السجع على الخطب ، قال بعض علماء اللغة : « الخطبة عند العرب : الكلام المنثور المسجع ونحوه »[3] .

وقسم (الجاحظ) الخطب على ضربين ، فقال: « اعلم ان جميع خطب العرب من أهل المدر والوبر والبدو والحضر على ضربين ، منها الطوال ، ومنها القصار، ولكل ذلك مكان يليق به ، وموضع يحسن فيه . ومن الطوال ما يكون مستوياً في الجودة ، ومتشاكلاً في استواء الصنعة ، ومنها ذات الفقر الحسان والنتف الجياد . وليس فيها بعد ذلك شيء يستحق الحفظ ، وإنما حفظه التخليد في بطون الصحف . ووجدنا عدد القصار أكثر ، ورواة العلم الى حفظها أسرع »[4] .

وقد اقتضى النظام الاجتماعي والسياسي في الجاهلية أن يقيم العرب للخطابة وزناً خاصاً في المفاوضات التي تكون في داخل القبيلة للنظر في أمورها وفي شؤونها الخاصة بها في أيام السلم وفي أوقات الغزو والغارات ، في حالتي الهجوم والدفاع. وأقاموا لها وزناً خاصاً بالمناسبة للمفاوضات التي جرت بين القبائل ، أو بين القبائل والملوك . ثم في المفاخرات وفي المنافرات . فكل هذه الأمور وأشباهها استدعت ظهور أناس بلغاء اعتمدوا على حسن تصرفهم في تنظيم الكلم وفي تنسيق الجمل وفي التلاعب بالألفاظ للتأثير على القلوب والأخذ بمجامع الألباب . فربّ كلمة كانت تقيم قبيلة وتقعدها لتلاعب الخطيب بقلبها بسحر بيانه وفي كيفية اختيار ألفاظه واستخدامه مواضع الإثارة التي يعرف أنها ستثير النار الدفينة في أفئدة سامعيه.

---

١ البيان والتبيين (٣/٢٨ وما بعدها) .
٢ البيان والتبيين (١/٢٩٠) .
٣ تاج العروس (١/٢٣٨) ، (خطب) .
٤ البيان والتبيين (٢/٧) .

ولهذا كانوا لا يختارون لمن يتكلم باسم قومه إلاّ من عرف بسحر لسانه وقوة بيانه، ليتمكن بما وهب من مرونة وتفنن في كلامه من التغلب على خصمه وافحامه، ولما مات (أبو دليجة) (فضالة بن كلدة) رثاه (أوس بن حجر) بكلمة مؤثرة تعبر عن مبلغ شعوره وشعور قومه للفاجعة الأليمة التي جعلت قوم الخطيب في لبس وبلبال ، لعدم وجود من سيحل محله في الدفاع عنهم ، اذ حفلوا لدى الملوك ، فيقول :

أبا دليجة من يكفي العشيرة إذْ أمسوا من الخطب في لبس وبلبال
أم من يكون خطيب القوم إذ حفلوا لدى الملوك ذوي أيد وافضال[1]

وندخل في الخطباء جماعة عرفت بإلقاء المواعظ والنصائح في أمور الدين والأخلاق والسلوك وفي التفكير ، وهم قوم تأثروا بالمؤثرات الثقافية التي كانت في أيامهم بسبب وجود اليهود والنصارى بينهم، وبسبب اتصالهم بالرهبان والمبشرين في داخل جزيرة العرب وفي خارجها ، فأخذوا يحثون قومهم على التعقل والتأمل والتفكر في أمور دينهم ودنياهم ، وترك ما هم عليه من عبادة الأصنام والتقرب الى الأوثان ، وهي حجارة صلبة ، أو من خشب أو معدن لا يسمع ولا يجيب. وينسب اليهم ، انهم كانوا على دين ابراهيم، على ألسنة العربية الأولى دين الفطرة دين التوحيد . وينسب اليهم أيضاً ، انهم كانوا يقرأون ويكتبون ، لا بالعربية وحدها ، بل بالعبرانية والسريانية أيضاً ، وانهم كانوا يتدارسون التوراة والانجيل وكتب الأنبياء ، الى غير ذلك من دعاوى قد تكون وضعت عليهم . وهم قوم سبق أن تحدثت عنهم ، وقلت عنهم انهم الأحناف .

واذا درسنا الأغراض التي توخاها أهل الجاهلية من الخطابة ، نجدها تكاد تتجمع في الأمور الآتية : التحريض على القتال، وإصلاح ذات البين ، ولمّ شعث ، لكثرة ما كان يقع بينهم من تنافر وتشاحن ، ثم السفارات الى القبائل أو الملوك، لأغراض مختلفة ، مثل التهنئة والتعزية ، أو طلب حاجة ، وحلّ معضل ، أو انهاء خصومة ، ثم الجلوس لحل الديات وانهاء نيران الثأر ، ثم التفاخر والتنافر والتباهي بالأحساب والأنساب والمآثر والجاه والمال ، ثم في الوفادات حيث تقتضي

---

١ كارلو نالينو (٩٨) ، ديوان أوس (١٠٣) ، نقد الشعر لقدامة (٣٥) .

المناسبة إلقاء الخطب ، أو في الحث على التعقل والتفكر وتغيير رأي فاسد ، كما في خطب قس بن ساعدة الإيادي وفي خطب الأحناف ، ثم في المناسبات الأخرى مثل تعداد مناقب ميت ، أو خطب الإملاك وما الى ذلك .

ومن أشهر الخطب المنسوبة الى الجاهليين ، الخطب التي زعم ان (أكثم بن صيفي) ، و (حاجب بن زرارة) ، وهما من (تميم) ، و (الحارث بن ظالم)، و (قيس بن مسعود) ، وهما من (بكـــر) ، و (خالد بن جعفر) ، و (علقمة بن علاثة) ، و (عامر بن الطفيل) من (بني عامر) ، قالوها في مجلس كسرى ، يوم أرسلهم (النعمان بن المنذر) اليه ، ليريه درجة فصاحة العرب ومبلغ بيانهم وعقلهم ، مما أثار إعجاب (كسرى) بهم ، حتى عجز عن تفضيل أحدهم على الآخر ، مما جعله يقـر ويعترف بذكاء العـرب وبقوة بيانهم وبقوة عقلهم ، فقدرهـــم لذلك حق قدرهم وأكرمهم . وهـــي خطب مصنوعة موضوعة ، قد تكون من وضع جماعة أرادت بها الرد على الشعوبيين الذين كانوا ينتقصون من قدر العرب ، ومن لسان العرب ، ومن دعوى الإعجاز في لغتهم، فصنعت هذا المجلس ، وعملت تلك المحاورة والخطب في الرد عليهم،وهي تتناول صميم ذلك الجدل .

وأكثر ما نسب الى زيد وأمثاله من الأحناف مختلق ، وضع عليهم فيما بعد . وأكثر ما ورد عنهم في شرح حياتهم هو من هذا النوع الذي يحتاج الى إثبات .

وقد ذكر أهل الأخبار أسماء نفر من الجاهليين قالوا عنهم إنهم كانوا مـــن خطباء الجاهلية المشهورين المعروفين ، وقد أدخلوا بعضهم في المُعَمرين . والمُعَمَّر في عرفهم من بلغ عشرين ومئة سنة فصاعداً ، وإلاّ ، لم يعدوه من المعمرين[1] . وعلى رأس من ذكروا : (دويد بن زيد بن نهـــد بن ليث بن أسود بن أسلم الحميري)، فهو إذن من حمير . وقد ذكر أنه عاش أربع مئة سنة وستاً وخمسين سنة ، ونسبوا اليه وصية أوصى بها بنيه[2] . ولكنهم لم يذكروا متى عاش ، وفي أي زمان مات ، وكيف أوصى بنيه بهذه اللهجة الحجازية ، لهجة القرآن الكريم، وهو من حمير ، وحمير لها لسانها وكتابتها .

---

١ بلوغ الارب (٣/١٥٧ وما بعدها) .
٢ بلوغ الارب (٣/١٥٧ وما بعدها) .

وذكر أهل الأخبار اسم (زهير بن جناب بن هبل) في ضمن المشهورين في قوة البيان والفصاحة والمنطق عند الجاهليين ، ويذكرون أنه كان على عهد (كليب ابن وائل) ، وانه كان لسداد رأيه كاهناً ، ولم تجتمع قضاعة إلا عليه وعلى (رزاح بن ربيعة) ، وقالوا إنه : « كان سيد قومه وشريفهم ، وخطيبهم ، وشاعرهم ، وأوفدهم الى الملوك ، وطبيبهم ، وحازي قومه ، وفارس قومه ، وله البيت فيهم والعدد منهم »[1] . وقد ذكروا له وصية أوصى بها بنيه، وأبيات شعر ، زعموا أنه نظمها .

وذكروا أيضاً (مرثد الخير بن ينكف بن نوف بن معديكرب بن مضحى)، زعموا أنه كان قيلاً حدباً على عشيرته،محباً لصلاحهم . وكان من أفصح الفصحاء وأخطب الخطباء ، وزعموا أيضاً أنه أصلح بين القيلين : (سبيع بن الحرث) و (ميثم بن مثوب بن ذي رعين) ، وأوردوا ما دار بينهم من نقاش وحوار[2] ضبطوه وسجلوه ، حتى لكأن كاتب ضبط كان حاضراً بينهم كُلِّفَ تسجيلَ محضر ذلك الحديث .

وعدّ (الحارث بن كعب المذحجي) من هذه الطبقة البليغة التي اشتهرت بسحر البيان . وقد زعم أهل الأخبار أنه كان على دين (شعيب) النبيّ ، وهو دين لم يكن قد دخل فيه غيره وغير (أسد بن خزيمة) و (تميم بن مرّ) . وقد ذكروا له وصيّة لأبنائه ، أوصاهم بها حين شعر بدنو أجله ، بعد أن عاش على زعمهم ستين ومئة سنة[3] .

ولم يذكر أهل الأخبار شيئاً عن هذا الدين ، دين شعيب . وليس في الوصية المنسوبة اليه ما يميزه عن غيره من الخطباء ، مثل قس بن ساعدة الايادي أو غيره من المتألهين الرافضين لعبادة الأوثان .

وعدّ علماء الأخبار كعب بن لؤي في جملة الخطباء القدماء ، وذكروا انه كان يخطب على العرب عامة ، ويحض كنانة على البر . وكان رجلاً طيباً خيراً ،

---

١ الاغاني (٢١/٩٣ وما بعدها) . بلوغ الارب (٣/١٥٩) .

٢ بلوغ الارب (٣/١٦١ وما بعدها) .

٣ بلوغ الارب (٣/١٦٤) .

فلما مات ، أكبروا موته ، فلم تزل كنانة تؤرخ بموت كعب بن لؤي الى عام الفيل[1] .

وكان ابن عمار عمرو بن عمار الطائي خطيب مذحج كلها ، وكان شاعراً كذلك ، فبلغ النعمان حسن حديثه ، فاستدعاه ، وحمله على منادمته . وكان النعمان أحمر العينين والجلد والشعر ، وكان شديد العربدة ، قتالاً للندماء ، فنهاه أبو قردودة الطائي عن منادمته ، ولكنه لم ينته ، فلما قتله النعمان ، رثاه أبو قردودة ، وهجا النعمان[2] .

وعدّوا (عبد المطلب) في جملة خطباء قريش ، الذين كانوا يخطبون في الملمات وفي الأمور العظيمة ، وكان وافد أهل مكه على ملوك اليمن ، فإذا مات ملك منهم ، أو تولى ملك منهم العرش ، ذهب الى اليمن معزياً ومهنئاً . فهو خطيب القوم اذن[3] .

ومن خطباء (غطفان) في الجاهلية : (خويلد بن عمرو) ، و (العُشَراء بن جابر) من (بني فزارة) ، وخويلد خطيب يوم الفجار[4] .

وأما بقية من ذكر أهل الأخبار من خطباء الجاهلية ، فهم : (أبو الطَّمَحان القيني) ، واسمه حنظلة بن الشرقي من (بني كنانة بن القين)[5] ، و (ذو الاصبع العدواني) وهو من حكام العرب كذلك[6] ، و (أوس بن حارثة)[7] ، و (أكثم ابن صيفي التميمي) ، وهو من حكام العرب أيضاً . وقد ذكر ان (يزيد بن المهلب) كان يسلك طريقته في خطبه ووصاياه[8] ، و (عمرو بن كلثوم) ، وهو من الخطباء الشعراء البارزين في الفنين . وقد ذكروا له خطبة نصح ووصية ذكروا انه أوصى بها بنيه ، في الأدب والسلوك[9] ، و (نعيم بن ثعلبة الكناني) ،

---

١ البيان (١/٣٥١) ، (هارون) .
٢ البيان (١/٢٢٢ وما بعدها ، ٣٤٩) ، البيان والتبيين (١/٣٤٩) ، (هارون) .
٣ الاشتقاق (٤٣) .
٤ البيان والتبيين (١/٣٥١) .
٥ بلوغ الارب (٣/١٦٨ وما بعدها) .
٦ بلوغ الارب (٣/١٦٩ وما بعدها) .
٧ بلوغ الارب (٣/١٧٠ وما بعدها) .
٨ بلوغ الارب (٣/١٧٢ وما بعدها) .
٩ بلوغ الارب (٣/١٧٤) .

وكان ناسئاً ، ينسىء الشهور ، وقيل : انه أول من نسأها . وكان يخطب في الموسم[1] ، و (أبو سيّارة العدواني) ، واسمه (عميلة بن خالد الأعزل)[2] ، و (الحارث بن ذبيان بن لجأ بن منهب اليماني)[3] .

وفي الملمات والأوقات العصيبة وفي الوفدات على الملوك يُختار خيرة الخطباء المتكلمين المعروفين بأصالة الرأي وبسرعة البديهة والجواب ، ليبيضوا الأوجه ، ويؤدوا المهمة على أحسن وجه . ولما قدم النعمان بن المنذر الحيرة ، بعد زيارته لكسرى، وتفاخره عنده بقومه العرب، وفي نفسه ما فيها مما سمع من كسرى من تنقص العرب وتهجين أمرهم ، بعث الى أكثم بن صيفي وحاجب بن زرارة التميميين ، والى الحارث بن عباد (الحارث بن ظالم) ، وقيس بن مسعود البكريين ، والى خالد بن جعفر وعلقمة بن علاثة ، وعامر بن الطفيل العامريين ، والى عمرو بن الشريد السلمي ، وعمرو بن معديكرب الزبيدي ، والحارث بن ظالم المريّ ، وهم خيرة من عرفهم في أيامه بالأصالة في الرأي وبقوة البيان ، وطلب منهم الذهاب الى كسرى والتكلم معه ، ليعرف عقل العرب وصفاء ذهنها . فذهبوا وتكلموا ، فأعجب بهم ، وقدرهم حق تقدير[4] .

وذكر عن حاجب بن زرارة : أنه وفد على كسرى لما منع تميماً من ريف العراق ، فاستأذن عليه ، وتحدث معه ، فأرضاه ، وأذن عندئذ لتميم أن يدخلوا الريف . وقد وفد ابنه عُطارد على كسرى أيضاً بعد وفاة والده[5] .

وأدرك (الربيع بن ضبيع الفزاري) الاسلام كذلك ، ويذكر أهل الأخبار أنه أدرك أيام عبد الملك بن مروان[6] . وإذا كان هذا صحيحاً ، فيجب أن يكون قد عاش معظم أيامه في الاسلام . أما في الجاهلية ، فقد كان طفلاً ، أو شاباً، وإن ذكر أهل الأخبار أنه كان من المعمرين .

---

١ بلوغ الارب (٣/١٧٥ وما بعدها) .
٢ بلوغ الارب (٣/١٧٦) .
٣ بلوغ الارب (٣/١٧٧ وما بعدها) .
٤ العقد الفريد (٢/٤ وما بعدها) « وفود العرب على كسرى » .
٥ العقد الفريد (٢/٢٠) .
٦ بلوغ الارب (٣/١٦٦) ، أمالي المرتضى (١/١٨٣) ، الاقتضاب (٣٦٩) ، الدرر اللوامع (١/٢١٠) .

ومن الخطباء عطارد بن حاجب بن زرارة ، وقد خطب أمـام الرسول[1] . ومن خطباء غطفان في الجاهلية : خويلد بن عمرو ، والعشراء بن جابر بن عقيل[2]. وكان الأسود بن كعب ، المعروف بالكذاب العنسي ، الـذي ادعى النبوة من الخطباء كذلك[3] .

وذكر أهل الأخبار اسم : (قيس بن عامر بن الظرب) ، و (غيلان بن سلمة الثقفي) في جملة حكام العرب . وذكروا انه كان قـد خصص يوماً له يحكم فيه بين الناس ، ويوماً ينشد فيه شعره . وذكروا من حكام قريش عبـد المطلب ، وهاشم بن عبد مناف ، وأبا طالب والعاص بن وائل[4] .

وعدّوا (قيس بن زهير العبسي) من خطباء الجاهلية المعروفين ، وقد ذكروا عنه انه جاور (النمرّ بن قاسط) بعد (يوم الهباءة) ، وتزوج منهـم . ثم رحل عنهم الى (غمار) ، فتنصر بها ، وعف عن المآكل ، حتى أكل الحنظل الى ان مات[5] . وله أمثلة مذكورة في كتب الأمثال[6] . وقيل فيه : « أدهى من قيس بن زهير » ، ومن أقواله : « أربعة لا يطاقون : عبد ملك ، ونذل شبع، وأمة ورثت ، وقبيحة تزوجت » ، وله أمثال عديدة[7] . وذكر انه طرد إبـلاً لبني زياد ، وباعها من عبدالله بن جدعان ، وقال في ذلك شعراً[8] .

وأما (سحبان بن زفر بن إياس) المعروف بـ (سحبان بن وائل الباهلي)، فإنه خطيب ضرب به المثل في الفصاحة فيقال : (أخطب من سحبان وائل) ، و (أفصح من سحبان وائل) ، و (أنطق من سحبـان) ، و (أبلـغ من سحبان) ، لمن يريدون مدحه واعطاءه صفة البيان . وذكر أنه عاش في الجاهلية

---

١ البيان (١/٣٢٨) .
٢ البيان (١/٣٥٠ وما بعدها) .
٣ البيان (١/٣٥٩) .
٤ مجمع الامثال (١/٤١) .
٥ بلوغ الارب (٣/١٦٥ وما بعدها) .
٦ أبو هلال العسكري ، جمهرة الامثال (١/٢٦٨ ، ٢٩٩) .
٧ جمهرة الامثال (١/٤٥٧) .
٨ جمهرة الامثال (١/٣٤٤) .

وعاش في الاسلام حتى أدرك أيام معاوية[1] . وقد عرف بخطبته (الشوهـــاء) ، قيل لها ذلك لحسنها . وذلك انه خطب بها عند معاوية فلم ينشد شاعر ولم يخطب خطيب[2] . « وكان اذا خطب لم يعد حرفاً ولم يتلعثم ، ولم يتوقف ، ولم يتفكر بل كان يسيل سيلاً »[3] . وقد ورد انه توفي سنة (٥٤ هـ)[4] .

ذكر انه دخل على معاوية وعنده خطباء القبائل ، فلما رأوه خرجوا ، لعلمهم بقصورهم عنه ، فقال :

لقد علم الحي اليانون انني اذا قلت أما بعد اني خطيبها

فقال له معاوية : أخطب ، فطلب عصا ، فلما أحضرت له خطب جملـة ساعات ، فقال له معاوية : أنتَ أخطب العرب ، قال : أو العرب وحدها ، بل أخطبُ الجن والانس[5] .

وقد اشتهرت إياد وتميم بالخطابة وبشدة عارضة خطبائها وبقوة بيانهم[6] . وقد ذكر ان معاوية ذكر تميماً ، فقال : « لقد أوتيت تميم الحكمة ، مع رقة حواشي الكلم »[7] . وهناك قبائل أخرى أخرجت خطبـاء مشهورين ، نسبت اليهم خطب بليغة . وقد يكون من الأعمال المفيدة النافعة ، وضع دراسة خاصة بعدد الخطباء الذين نبغوا في القبائل ، وبدراسة خطبهم ، وبمساكن أولئك الخطبـــاء ومهاجر قبائلهم ، فإن دراسة علمية مثل هذه تعيننا كثيراً على الوقوف على تطور هـــذه اللغة العربية التي نزل بها القـرآن الكريم ، والقبائل التي تكلمت بها سليقةً وطبعاً .

وذكر (الجاحظ) أن شأن (عبد القيس) عجب ، « وذلك أنهم بعـــد

---

١ بلوغ الارب (٣/١٥٦) ، تاج العروس (١/٢٩٤) ، (سحب) ، ثمار القلـوب (١٠٢ وما بعدها) .
٢ البيان (١/٣٤٨) ، (لجنة) ، وعرفت خطبة قيس بن خارجة بالعذراء .
٣ الاصابة (٢/١٠٨) ، (رقم ٣٦٦٣) .
٤ كارلو نالينو (١١٨) .
٥ أبو هلال العسكري ، جمهرة الامثال (١/٢٤٨ وما بعدها) .
٦ البيان والتبيين (١/٥٣) .
٧ البيانُ والتبيين (١/٥٤) .

محاربة إياد تفرقوا فرقتين : ففرقة وقعت بعمان وشق عمان ، وهم خطباء العرب، وفرقة وقعت الى البحرين ، وهم من أشعر قبيل في العرب ، ولم يكونوا كذلك حين كانوا في سرة البادية وفي معدن الفصاحة . وهذا عجب »[1] . وذكر (الجاحظ) أن (معاوية) كان يعجب من فصاحة (عبد القيس) ، ولما اجتمع بـ (صحار ابن العباس) (صحار بن العياش) ، المعروف بـ (صحار العبدي) ، عجب من بلاغته وفصاحته ، فقال له ، ما هذه البلاغة فيكم ؟ قال : شيء يختلج في صدورنا ، فنقذفه كما يقذف البحر بزبده . قال : فما البلاغة ؟ قال : أن تقول فلا تبطيء ، وتصيب فلا تخطيء[2] . وورد في (كتاب الحيوان) ، للجاحظ ، أنه قال له : « ما الإيجاز ؟ قال : أن تجيب فلا تبطيء ، وتقول فلا تخطيء »[3]. وله كلام فيما يجب أن يقال عند تذكر الاحسان[4] .

وكان نسابة ، وله مع (دغفل) النسابة محاورات[5]. وقد ذكر (ابن النديم)، أن له من الكتب : (كتاب الأمثال)[6] ، وقد أشاد (الجاحظ) بعلمه في الأنساب ، وذكره فيمن ذكر ممن ألف في كتب النسب ، من أمثال (ابن الكلبي) ، و (الشرقي بن القطامي) ، و (أبي اليقظان) ، و (أبي عبيدة) ، و (دغفل بن حنظلة) النسابة ، و (ابن لسان الحمرة) ، و (ابن النطاح) اللخمي[7] .

وكان لبني عبد القيس ، اتصال بمكة قبل الاسلام ، لهم معها تجارة . يرسلون اليها التمر والملاحف والثياب والتجارة المستوردة من الهند . وقد أشير اليها في خبر إسلام (الأشج) : (أشج) عبد القيس ، واسمه (المنذر بن عائذ بن الحارث بن المنذر بن النعمان) العبدي . فقد أرسل ابن أخته (عمرو بن عبد القيس).

---

١ البيان والتبيين وأهم الرسائل ، انتقاء الدكتور جميل جبر ، (بيروت ١٩٥٩ م) ، (المطبعة الكاثوليكية) ، (ص ٢٤) .
٢ الاصابة (٢/١٧٠) ، (رقم ٤٠٤١) ، البيان والتبيين (١/٩٦) ، المصون (١٣٩).
٣ الحيوان (١/٩٠ وما بعدها) .
٤ الحيوان (٣/٣٦٧) .
٥ الاصابة (٢/١٧٠) ، (رقم ٤٠٤١) .
٦ الفهرست (١٢٨) ، (المقالة الثالثة) .
٧ الحيوان (٣/٢٠٩) .

الى مكة عام الهجرة ، ومعه تجارة من تمر وملاحف ، فلقيه النبي ، وهداه الى الاسلام ، وكان مثل قومه نصرانيـــاً ، فأسلم ، وتعلم سورة الحمد واقرأ باسم ربك ، فلما باع تجارته وعاد ، أخبر خاله (الأشج) بإسلامه ، فأسلم وكتم إسلامه حيناً ، فلما كان عام الفتح ، خرج مع وفد من أهل (هجر) وعبـد القيس ، وصل المدينـــة ، وقابل الرسول ، وأعلنوا إسلامهم ، فقدموا بلادهم ،وحوّلوا (البيعة) مسجداً[1] .

وممن اشتهـر من (بني عبد القيس) بالخطابـــة والفصاحة : (صعصعة بن صوحان) العبدي ، وأخواه : (سيحان) و (زيد) . وقد شهد (صفّين) مع (علي) ، وكانت له مواقف مع معاوية ، وقد مات في خلافته . « وقال الشعبي كنت أتعلم منه الخطب » ، وله شعر[2] .

وذكر في أثناء تحدث أهل الأخبار عن (الردة) وادعاء (لقيط بن مالك) الأزدي النبوة ، ان (الحارث بن راشد) ، و (صيحان بن صوحان) العبدي جاءا على رأس مدد من (بني ناجية) و (عبد القيس) ، لمساعدة (عكرمة) و (عرفجة) ، و (جبير) ، و (عبيد) ، فاستعلاهم ، فلما وصل المدد انهزم (لقيط) ، وقتل ممن كان معه عشرة آلاف[3] . ولعل (صيحان) هذا هو أخ (صعصعة بن صوحان) .

ومن منازل (عبد القيس) (دارين) و (الزارة) ، وكان بهـا رهبان وبيع[4] ، ويظهر ان النصرانية كانت متفشية بين (عبد القيس) ، وردت اليها من العراق . وكان (بنو عبد القيس) من العرب المتحضرين بالنسبة الى أعراب البوادي ، ولهم اتصال بالعالم الخارجي ، وقد قام المبشرون بنشر الكتابة بينهم ، ولا بد وأن تكون كتابتهم بالقلم العربـي الشمالي ، الذي كان يكتب به النصارى العرب . ونجد في قرى البحرين أناساً من مختلف الأجناس ، بسبب اتصالها بالبحر

---

١ الاصابة (٢/١٧١) ، (رقم ٤٠٤١) ، (٣/٥) ، (رقم ٥٩٠٣) .

٢ الاصابة (٢/١٩٢) ، (رقم ٤١٣٠) ، البيان (١/٩٦) ، جمهرة الامثـــال (٢/١٤٤) .

٣ الاصابة (٢/١٩٣) ، (٤١٣٣) .

٤ الاصابة (٢/١٧١) ، (رقم ٤٠٤١) .

ومجيء الأقوام اليها من الهند وايران والعراق ، فظهرت فيها ثقافة ، امتصت غذاءها من مختلف الثقافات .

وهناك من اشتهر بالخطابة وكان قريب عهد من الاسلام ، أو أدركه وأسلم، منهم : (قس بن ساعدة الإيادي) . وقد رآه الرسول ، وسمعه يتكلم ، وهو راكب على جمل أورق . ويذكر أن الرسول قال : « يرحم الله قساً ، إني لأرجو يوم القيامة أن يبعث أمة وحده »[1] . وقد عدّه بعض الباحثين من النصارى، ولكن معظم أهل الأخبار يرى أنه كان على الحنيفية ، أي على التوحيد ، لا هو من يهود ، ولا هو من النصارى[2] .

وقد ذكر أهل الأخبار أنه « كان من حكماء العرب وأعقل من سمع به منهم وهو أول من كتب من فلان الى فلان ، وأول من أقر بالبعث من غير علم ، وأول من قال : أما بعد ، وأول من قال : البينة على من ادعى واليمين على من أنكر »[3] . وأنه أول من خطب على شرف ، وأول من اتكأ عند خطبته على سيف أو عصا[4] . وكان أحكم حكماء العرب ، وأبلغ وأعقل من سمع به من إياد . وبه ضرب المثل في الخطابة والبلاغة[5] . روي أن الرسول سمع كلام (قس ابن ساعدة) الإيادي ورواه ، ذكر (الجاحظ) أن رسول الله « هو الذي روى كلام (قس بن ساعدة) وموقفه على جمله بعُكاظ وموعظته ، وهو الذي رواه لقريش والعرب ، وهو الذي عجب من حسنه وأظهر من تصويبه »[6] . وذكر في موضع آخر من كتابه (البيان والتبيين) أن الرسول قال : « رأيته يسوق عكاظ على جمل أحمر وهو يقول : أيها الناس اجتمعوا واسمعوا وعُوا . من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت .

---

١ بلوغ الارب (٣/١٥٥) ، نزهة الجليس (١/٤٢٩) .

٢ المصدر نفسه .

٣ مجمع الامثال (١/١١٧) ، جمهرة الامثال (١/٢٤٩) .

٤ الاغاني (١٤/٤٠ وما بعدها) ، الخزانة (٢/٩٠) ، (عبد السلام محمد هارون) .

٥ ثمار القلوب (١٢١ وما بعدها ، ١٢٧) .

٦ البيان والتبيين (١/٥٢) .

وهو القائل في هذه : آياتٌ محكمات ، مطرٌ ونبات ، وآباء وأمهـات ، وذاهب وآت ، ضوء وظلام ، وبر وأثام ، ولباس ومركب ، ومطعم ومشرب ، ونجوم تمور ، وبحور لا تغور ، وسقف مرفوع ، ومهاد موضوع ، وليل داج ، وسماء ذات أبراج . ما لي أرى الناس يموتون ولا يرجعون ، أرضوا فأقاموا ، أم حبسوا فناموا .

وهو القائل : يا معشر إياد ، أين ثمود وعاد ، وأين الآباء والأجداد . أين المعروف الذي لا يشكر ، والظلم الذي لم يذكر ، أقسم قس قسماً بالله ، إن لله ديناً هو أرضى له من دينكم هذا .

وأنشدوا له :

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت مـوارداً للموت ليس لها بصائر
ورأيت قومـي نحوها يمضي الأصاغـر والأكابر
لا يرجع الماضي ولا يبقى من الباقـين غابـر
أيقنـت أنّي لا محـا لة حيث صار القوم صائر[1]

وقد اشتهر قس بخطبته التي خطبها بسوق عكاظ ، وبأبيات من الشعر رويت عن (أبي بكر الصديق) . وبفصاحته وبلاغته ضرب المثل ، فقيل: « أبلغ من قس »[2] . وقد استشهد ببعض شعر (قس) في كتب الشواهد[3] . وذكر انه أول من قال : أما بعد في العرب .

وفي رواية من روايات أهل الأخبار : ان أول من قال : « أما بعد » ، هو كعب بن لؤي بن غالب بن فهـر بن مالك بن النضر بن كنانة[4] . زعيم قريش ، وأحد خطبائها المشهورين .

---

١ البيان والتبيين (١/٣٠٨) .
٢ مجمع الامثال (١/١١٧) ، البيان والتبيين (١/٣٠٩) .
٣ الخزانة (١/٢٦٣) ، (بولاق) .
٤ المرزباني ، معجم الشعـراء (ص ٣٤١) ، الخزانـة (٤/٣٤٧) ، (بولاق) ، (الشاهد السابع والستون بعد الثمانمائة) .

وذكر بعض أهل الأخبار : أنه قيل لقُس بن ساعدة : ما أفضل المعرفة : قال : معرفة الرجل نفسه ، قيل له : فما أفضل العلم ؟ قال : وقوف المرء عند علمه . قيل له : فما أفضلُ المروءة ؟ قال : استبقاء الرجل ماء وجه[1] .

وقد وردت في الخطبة المنسوبة الى قس بن ساعدة الإيادي هذه الجملة : « إن في السماء لخبراً » . ويلاحظ أن العبرانيين كانوا يراقبون السماء لأخذ الأخبار عما سيقع لهم من أحداث منها . وقد تخصص بذلك نفر منهم ، عرفوا بـ (خبرى شمايم) ، أي المخبرون عما يقع في السماء ؛ و (قيرى شمايم) ، أي قراء السماء[2] . وكان العرب يراقبون السماء كذلك ، استطلاعاً للأخبار ، وفي الجملة المنسوبة الى (قس) تعبير عن ارتقابه وقوع أمر مهم .

و (قس) من المعمرين ، زعم بعض أهل الأخبار أنه عمر سبعمائة سنة ، وزعم بعض آخر أنه عاش ثلثمائة وثمانين سنة ، « وقال المرزباني : ذكر كثير من أهل العلم أنه عاش ستمائة سنة » . وقال بعضهم انه أدرك نبيّنا ، وسمعه ، وجعله بعضهم في الصحابة ، وأماته بعضهم قبل البعثة . وقال قوم إنه أول من آمن بالبعث من أصل الجاهلية[3] . وفي الذي يرويه أهل الأخبار عن خطبة قس ورواية النبي[1] لها تصادم في الروايات . وقد ذكر ذلك العلماء[4] ، واني أرى أن القصة موضوعة ، وهي من هذا النوع الذي وضع للتبشير بقرب ظهور دين جديد .

وقد أشير الى قس في أبيات نسبت الى الحطيئة والأعشى ولبيد . وقد ضرب الحطيئة به المثل في البيان ، وبقوة تأثيره في نفوس السامعين . أما الأعشى فقد وصفه بالحلم ، وأما لبيد فقد قال فيه :

وأحلفن قساً ليتني ولعلني وأعيا على لقمان حكم التدبر

---

١ العقد الفريد (٢/٢٥٤) .

٢ Hastings, Dict., Vol., I, p. 194.

٣ الخزانة (٢/٨٩ وما بعدها) ، (عبد السلام محمد هارون) ، البيان والتبيين (١/٥٢) ، (عبد السلام محمد هارون) ، الخزانة (١/٢٦٣) ، (بولاق) .

٤ السيرة الحلبية (١/٢١٠) ، اللآلىء (١/٩٥) .

ويقولون : وانما قال ذلك لبيد ، لقول قس :

هل الغيب معطى الأمن عند نزوله بحال مسيء في الأمور ومحسن
وما قد تولى فهو لا شك فائت فهل ينفعني ليتني ولعلني ؟

ونسبوا اليه أبياتاً من الشعر[1] .

وورد ان (الجارود بن عبدالله) من (بني عبد القيس) ، وكان سيداً في قومه لما قدم على رسول الله ، وأسلم مع قومه ، قال له الرسول : « يا جارود هل في جماعة وفد عبد القيس من يعرف لنا قساً ؟ قالوا : كلنا نعرفه يا رسول الله ، وأنا من بين يـــدي القوم كنت أقفو أثره . كان من أسباط العرب فصيحاً ، عمّر سبعمائة سنة ، أدرك من الحواريين سمعان ، فهو أول من تأله من العرب ، كأني أنظر اليه يقسم بالرب الذي هو له ليبلغن الكتـاب أجله وليوفين كل عامل عمله ، ثم أنشأ يقول :

هاج للقلب من جواه ادّكار وليالٍ خلا لهنّ نهارُ

في أبيات آخرها :

والذي قد ذكرتُ دلّ على الله نفوساً لها هدى واعتبار

فقال النبي ، صلى الله عليـه وسلم : عـــلى رسلك يا جارود ، فلست أنساه بسوق عكاظ على جمل أورق ، وهو يتكلم بكلام ما أظن انـي أحفظه . فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله ، فإني أحفظـــه : كنت حاضراً ذلك اليوم بسوق عكاظ فقال في خطبته : يا أيها الناس اسمعوا وعوا ، فإذا وعيـــتم فانتفعوا ، انه من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، الى آخر ما أورده من الوعظ »[2] .

و (الجارود) ، هو (بشر بن عمرو بن حنش بن النعمان) ، وقيل هـو

---

١ المرزباني ، معجم (ص ٣٣٨) .
٢ الخزانة (٨٩/٢) ، سيرة ابن سيد الناس (٦٩/١) .

(أبو المُعلى) ، (الحارث بن زيد بن حارثة بن معاوية بن ثعلبة)[1] ، وقيل: (الجارود بن المعلى) ، ويقال ابن عمرو بن المعلى ، وقيل الجارود بن العلاء ، وقيل الجارود بن عمرو بن حنش ، وقيل اسمه بشر بن حنش ، الى غير ذلك من أقوال تدل على اضطراب أهل الأخبار في معرفته ، وكان نصرانياً ، وكان شاعراً ، وأوردوا له شعراً يعلن إيمانه بالرسول ، وبأنه حنيف حيث كان من الأرض . قيل إنه قتل بفارس في أيام عمر سنة (٢١) ، وقيل بقي الى خلافة عثمان[2] .

وذكر (الجاحظ) أن من خطباء العرب : (الصباح بن شفي) الحميري، زعم أنه كان من أخطب العرب ، وقيس بن شمّاس ، وثابت بن قيس بن شماس ، خطيب النبي ، فقد أوكله الرسول بالردّ على خطاب من كان يخطب أمامه من الوفود ، فهو الناطق باسمه بالنثر ، كما كان (حسان) الناطق باسم الرسول شعراً . وذكر أن من خطباء العرب (الأسود العنسي) ، و (طليحة ابن خويلد) الأسدي، تنبأ في خلافة أبي بكر في بني أسد بن خزيمة ، وعاضده (عيينة بن حصن) الفزاري ، فوجه (أبو بكر) اليه خالد بن الوليد، فهزمه، وأسر (عيينة) سنة (١١) للهجرة ، وقد أسلم (طليحة) ، واستشهد بنهاوند سنة (١١) من الهجرة[3] . وذكر (الجاحظ) : (مسيلمة) بعد (طليحة) ، فقال : « وكان مسيلمة الكذّاب ، بعيداً عن ذلك كله »[4] ، أي انه نفى الخطابة عنه .

ومن الخطباء النابهين أصحاب الرأي والبيان ، خطيب عاش في الجاهلية والاسلام وقد أسلم وحسن إسلامه ، هو : سهيل بن عمرو الأعلم ، أحد بني حِسْل بن معيص . يقال انه كان مؤثراً جداً ، أخاذاً يأخذ بعقول الناس ، حتى ذكر ان عمر قال للنبي ، صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، انزع ثنيتيه السفليين حتى يدلع لسانه ، فلا يقوم عليك خطيباً أبداً . فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم:

---

١ خليفة بن خياط ، كتاب الطبقات (٦١) .
٢ الاصابة (١/٢١٨) ، (رقم ١٠٤٢) .
٣ البيان والتبيين (١/٣٥٩) .
٤ البيان والتبيين (١/٣٥٩) .

لا أمثل ، فيمثل الله بي ، وإن كنت نبياً . دعه يا عمـــر ، فعسى أن يقوم مقاماً تحمده . فلما هاج أهل مكة عند الذي بلغهم من وفاة رسول الله، صلى الله عليه وسلم ، قام خطيباً ، فقال : « أيها الناس ، إن يكن محمـــد قد مات ، فالله حي لم يمت ، وقد علمتم أني أكثركم قتباً في بَرّ ، وجارية في بحـــر ، فأقروا أميركم وأنا ضامن ، إن لم يتم الأمر ، أن أردها عليـــكم » . فسكن الناس[1] .

وهو الذي قال يوم خرج آذن عمر ، وبالباب عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، وفلان ، وفلان ، فقال الآذن : أين بلال ؟ أين صهيب ؟ أين سلمان ؟ أين عمار ؟ فتمعرت وجوه القوم ، فقال سهيل : لمَ تتمعر وجوهـــكم ؟ دُعُوا ودعينا ، فأسرعوا وأبطأنا ، ولئن حسدتموهم على باب عمر ، لما أعدّ الله لهـم في الجنة أكثر[2] . وفي هذا الجواب دلالة على عقـــل فاهم للواجب مدرك لمهمات رئيس الدولة، ولما يجب أن تقوم الحكومة عليه ، لا يبالي بالعنعنات القديمة وبالعرف القبيلي الجاهلي .

وروي « أنه لما ماج أهل مكة عند وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، وارتد من ارتد من العرب ، قام سهيل بن عمرو خطيباً . فقال : والله إني لأعلم أن هذا الدين سيمتد امتداد الشمس في طلوعهـــا الى غروبها ، فلا يغرنكم هذا من أنفسكم – يعني أبا سفيان – ، فإنه ليعلم من هذا الأمر ما أعلم ، ولكنه قـــد جثم عـــلى صدره حسد بـني هاشم . وأتى في خطبته بمثل ما جاء به أبو بكر الصديق رضي الله عنه بالمدينة »[3] . وقد كان مخلصاً في عقيدته مطيعاً لأمر الحاكم، ذكر أنه حضر « الناس باب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وفيهم سهيل بن عمرو

---

١ البيان (١/٣١٧) ، (من كان يعبد محمدا ، فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت) ،الاصابة (٢/٢٩) ، (وقم ٣٥٧٣) ، الاستيعـــاب (٢/١٠٧ وما بعدها) ، البيان والتبيين (١/٥٨) ، (عبد السلام محمد هارون) .

٢ البيان (١/٣١٧) « لجنة » .

٣ الاستيعاب (٢/١٠٩) ، (حاشية على الاصابة) ، البيان والتبيين (١/٣١٧) .

وأبو سفيان بن حرب ، وأولئك الشيوخ من قريش ، فخرج آذنه . فجعل يأذن لأهل بدر ، لصهيب وبلال وأهل بدر وكان يحبهم . وكان قد أوصى بهم . فقال أبو سفيان : ما رأيت كاليوم قط ! انه ليؤذن لهؤلاء العبيد ونحن جلوس، لا يلتفت الينا ! فقال سهيل بن عمرو ، وقال الحسن : ويا له من رجل ، ما كان أعقله ، أيها القوم إني والله قد أرى الذي في وجوهكم ، فإن كنتم غضاباً، فاغضبوا على أنفسكم ، دُعي القوم ودعيتم ، فأسرعوا وأبطأتم . أما والله لما سبقوكم به من الفضل أشد عليكم فوتاً من بابكم هذا الذي تتنافسون فيه . ثم قال : أيها القوم ! إن هؤلاء القوم قد سبقوكم بما ترون ، ولا سبيل لكم والله الى ما سبقوكم اليه ، فانظروا هذا الجهاد فالزموه عسى الله عز وجل أن يرزقكم شهادة ، ثم نفض ثوبه وقام ولحق بالشام »[1] . فالرجل مؤمن ، صاحب مبدأ ، يرى الفضل لأصحابه بأعمالهم ، لا بالرئاسة والنسب والجاه ، كما كان يريد أبو سفيان وقومه .

وقد نعت بـ (خطيب قريش)[2] ، لفصاحته وقوة بيانه ، ولهذا اختارته قريش ليكون لسانها حين فاوضت الرسول على الصلح في الحديبية . وقد تكلم فأطال الكلام وتراجع مع الرسول حتى وافق على تدوين كتاب الصلح[3] . وكان هو لسان قريش يوم وضع الرسول يده على عضادتي باب الكعبة ، فقال : « ما تقولون » ؟ فقال سهيل : « نقول خيراً ونظن خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، وقد قدرت »[4] .

وتعد (ابنة الخس هند الإيادية) ، وهي بنت (الخس بن حابس) ، رجل من إياد ، من النساء المعروفات بالفصاحة . وقد رووا عنها الأمثال . وذكر ان والدها هو (خس بن حابس بن قريط) الإيادي . وقال بعض أهل الأخبار ان ابنة الخس من (العماليق) . والإيادية هي (جمعة بنت حابس) الإيادي ،

---

١ الاستيعاب (٢/١٠٩ وما بعدها) .
٢ الاصابة (٢/٩٢) ، (رقم ٣٥٧٣) .
٣ الطبري (٢/٦٣٣ وما بعدها) .
٤ الاصابة (٢/٩٢) ، (رقم ٣٥٧٣) .

وكلتاهما من الفصاح . وذكر بعض آخر ، ان الصواب ان ابنة الخس المشهورة بالفصاحة واحدة ، وهي من (بني إياد) . واختلف في اسمها ، فقيل هند وقيل جمعة . ومن قال انها بنت حابس ، فقد نسبها الى جدها[1] .

وممن ضرب به المثل في الفصاحه (سحبان بن زفر بن إياس) الوائلي ، وائل باهلة . خطيب مفصح يضرب به المثل في البيان ، أدرك الجاهلية وأسلم ، ومات سنة (٥٤ هـ)[2] . شهرته في الاسلام ، كشهرة (قس) في الجاهلية . واشتهر (هيذان بن شيخ) (هيدان بن سنح) ، بكونه خطيب (عبس) ، وذكر أن النبي قال للنابغة الجعدي : لا يفضض الله فاك ، وقال لهيذان : رب خطيب من عبس[3] .

والخطابة عند الجاهليين حقيقة لا يستطيع أحد أن يجادل في وجودها ، ودليل ذلك خطب الوفود التي وفدت على الرسول ، وهي لا تختلف في أسلوب صياغتها وطريقة إلقائها عن اسلوب الجاهليين في الصياغة وفي طرق الإلقاء . ثم إن خطب الرسول في الوفود وفي الناس وأجوبته للخطباء ، هي دليل أيضاً على وجود الخطابة بهذا الاسلوب وبهذه الطريقة عند الجاهليين . بل نجد أن الخطابة كان لها شأن في الحياة العربية في الجاهلية وفي الاسلام . ففي المناسبات مثل عقد زواج ، لا بد للخاطب من خطبة يخطبها أمام العروس والحاضرين ، يذكر فيها مناقب موكله ومناقب الأسرة التي رغب العروس في مصاهرتها ولعلها هي التي حملت الناس على نعت هذه المناسبة بـ (الخِطْبة) و (بخطبة العروس) ، حتى قيل : « جاء يَخْطِبُ فلانة لفلان » ، وان فرق العلماء بين (الخُطبة) التي هي الموعظة والكلام ، وبين (الخِطبة) التي هي طلب المرأة ، بالحركة ، فذكروا أن الأولى هي بضم الخاء والثانية بكسرها[4] .

---

١ تاج العروس (٤/١٣٧) ، (خس) .
٢ الخزانة (٤/٣٤٦ وما بعدها) ، (بولاق) .
٣ البيان والتبيين (١/٢٧٣) ، الاصابة (٣/٥٨١) ، (رقم ٩٠٢٨) .
٤ المفردات ، للراغب الاصفهاني (ص ١٥٠) .

ونجد في كتب الأدب والأخبار نصوص خطب نسبت الى خطباء جاهليين ، يخرج المرء من قراءتها ومن قراءة ما ذكره أهل الأخبار عنهـا ، بأنها نصوص دقيقة تمثل الأصل تمام التمثيل ، أو كأنها نسخ استنسخت عن نسخ أصلية كتبها الخطباء بأنفسهم ، أو دوّنهـا كتاب شهود كانوا حضوراً وقت القاء الخطب . ونحن وإن تعودنا على اعتبار هـذه الخطب ، وكأنها خطب أصيلة لا شك عندنا في أصالتها ولا شبهة . لكننا لا نستطيع اقناع أنفسنا ولا غيرنا بصحة رأينا هذا . واذا كنا قد قبلنا ما قيل لنا عن الشعر الجاهلي، فإننا لا نتمكن من قبول ما يذهب اليه الأدباء المقلدون من أن الخطب المنسوبة الى خطباء الجاهليـة ، هي نصوص دقيقة صحيحة ، أو ان أكثرها صحيح لا شك لأحد في صحته ، وذلك لأسباب: منها ما ذكره أهل الأخبار أنفسهم من قولهم « وكان الخطيبُ من العـرب اذا ارتجل خطبةً ثم أعادها زاد فيها ونقص »[1] ، ثم ما نجده من اختلاف في رواية خطبة (قس بن ساعدة) ، ومنهم أناس حضروا خطابه ، فكيف نصدق صحة نصوص خطب لأناس جاهليين تبلغ عدة صفحات .

وكيف يصدق انسان بصحة ما ينسب الى الجاهليين من خطب وأقوال ، وهو يعلم ان خطبة (حجة الوداع) ، قد اختلف الـرواة في رواية نصها اختلافـاً كبيراً[2] ، واذا كانوا قـد اختلفوا في ضبط نص خطبة تعـد من أهم خطب الرسول ، لما جاء فيها من بيان وأحكام ، وكلام الرسول أفضل كلام للمسلم ، فهل يعقل أخذ موضوع صحة نصوص خطب الجاهليين ، على انه كلام صحيح بالنص والحرف والمعنى ! واذا كان المسلمون قد جوزوا رواية حديث رسول الله بالمعنى ، لصعوبة الرواية بالحرف والكلم والنص ، فهل يعقل ضبط الناس لخطب الجاهليين ، ضبطاً تاماً كاملاً بالحرف والمعنى ،مع ان كلام أهل الجاهلية لا يقاس بكلام الرسول في نظر المسلمين من دون شك .

---

١ اللسان (١٢/٣٤) ، (أمم) .

٢ راجع نصها في تاريخ اليعقوبي (٢/٩٩ وما بعدها) ، (طبعة النجف) .

والأمر بالنسبة للشعر الجاهلي من حيث الصنعة والافتعال أهون أمراً في نظري من موضوع الخطب الجاهلية ، فالشعر كلام موزون مقفى وهو غير طويل ، يمكن حفظه بسهولة ، ويمكن خزنه في الذهن أمداً طويلاً ، أما النثر ، فليس من السهل حفظه حرفياً ؛ واذا حفظ ، فلا يمكن للذاكرة مهما كانت قوية أن تحافظ على صفائه الى أجل طويل ، لا سيما اذا كانت الخطب طويلة ، لا تعاد قراءتها إلا في المناسبات . وللسبب المذكور ولخوف المسلمين من التقول على الرسول بما لم يقله من حروف وألفاظ وجمل ، جوّزوا رواية حديثه بالمعنى ، لصعوبة حفظ النص ، فهل تعد خطب الجاهليين أكثر أهمية من حديث الرسول ، حتى نقول انها نصوص مضبوطة صحيحة ، لا غبار على صحتها ، ولا شك من نصها !

وطابع الخطب ، السجع وقصر الجمل والإكثار من الحكم والأمثال ، والتفصيل والإزدواج . ويرد غالب السجع في كلام الكهان لذلك وسم بهم ، فقيل (سجع الكهان) . والسجع في كلام العرب أن يأتلف أواخر الكلم على نسق كما تأتلف القوافي ، وأن يكون في الكلام فواصل كفواصل الشعر من غير وزن . وذكر أن الرسول قال لأحدهم وكان يتكلم سجعاً : أسجع كسجع الكهان ! وفي رواية إياكم وسجع الكهان ، وفي الحديث أنه نهى عن السجع في الدعاء . وإنما كره السجع في الكلام لمشاكلته كلام الكهنة[1] . قال (الجاحظ) : « وكان الذي كرّه الأسجاع بعينها وإن كانت دون الشعر في التكلف والصنعة ، أن كهّان العرب الذين كان أكثر الجاهلية يتحاكمون اليهم ، وكانوا يدعون الكهانة وأن مع كل واحد منهم رئيّاً من الجنّ ، مثل حازي جُهينة ، ومثل شق وسطيح ، وعزى سلمة وأشباههم ، كانوا يتكهنون ويحكمون بالأسجاع ؛ كقوله : والأرض والسماء ، والعقاب الصقعاء ، واقعة ببقعاء ، لقد نفر المجدُ بني العشراء، للمجد والسّناء » . « فوقع النهي في ذلك الدهر لقرب عهدهم بالجاهلية ، ولبقيتها فيهم

---

١ تاج العروس (٣٧٦/٥) ، (سجع) .

وفي صدور كثير منهم ، فلما زالت العلّة زال التحريم » . وقد كانت الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين ، فيكون في ذلك الخطب أسجاع كثيرة ، فلا ينهونهم[1] . واتبع الخطباء في الاسلام وبعض الكتاب اسلوب السجع في خطبهم وفي كتبهم ، ولا زال السجع محبوباً عند كثير من الناس ، ولهذا فهم يكتبون به .

وأغلب الخطباء هم سادات قبائل وأشراف من أهل القرى ومن أصحاب المكانة والجاه والكهنة والحكام . ومنازلهم تحتم عليهم الخطابة في المناسبات ، لأنهم ألسنة قومهم ، فللكلام أثر في نفوس العرب ، يثير الحرب ويهدىء الأعصاب ويعقد السلم ، ويفض المشكل ، فصار من ثم للخطيب أثر كبير في الجاهلية . وكانت القبائل تفتخر بكثرة ما عندها من خطباء . وذكر (الجاحظ) أن رجلاً من حمير قام في مجلس لمعاوية اجتمع فيه الخطباء ، فقال : إنا لا نطيق أفواه الكيال ، عليهم المقال ، وعلينا الفعال[2] . ومعناه : إنا لا نستطيع الكلام كما يفعل غيرنا ، ولذلك فأنا لا أريد أن أتسابق معهم ، ثم اننا معشر عمل لا قول. و (الكمال) ، بمعنى الجمال ، جمع جمل، نطق بها بالكاف على لغة أهل اليمن القديمة ، لأن لسان حمير ينطق الجيم كافاً مفخمة .

ويلاحظ أن اكثر الذي ذكره أهل الأخبار من كلام الخطباء ، هو وصايا زعم أهل الأخبار أن أولئك الخطباء أوصوا بها أبناءهم ، وذلك حين تقدمت بهم السن ، وحين شعروا بدنو أجلهم . وهي تمثل خلاصة تجارب الموصى ومجمل ما حصل عليه من اختبارات في هذه الحياة . وهي على الجملة حكم ، وآراء في الدنيا ، ومواعظ ، لا تخطر إلا على بال رجل سئم من الحياة ويئس منها ، أو من زاهد متصوف متدين يؤمن بإلّه وبحساب وكتاب ، وجد ان الحياة مدبرة ، وانها زائلة فانية ، لا تدوم لأحد ، لذلك يريد أن يوصي أبناءه بما وجده فيها وخبره ورآه .

ولم يهمل أهل الأخبار ذكر أهل العيّ والبلادة ، وهم على قلتهم وضآلة

---

١ البيان والتبيين (١/٢٩٠) .
٢ البيان والتبيين (١/٣٩٨) .

عددهم مجتمع خاص قائم بذاته ، فأشاروا الى نوادرهم وبعض قصصهم، وجعلوا رأسهم وحامل لوائهم في الجاهلية شخصاً ضربوا به المثل في العيّ ، دعوه (باقلاّ) وجعلوه من قيس بن ثعلبة . وقالوا : إن من حماقته وعيّه أنه اشترى عنزاً من الظباء بأحد عشر درهماً ، فقيل : بكم اشتريتها ؟ فأطلق كفّيه ومدّ أصابعه وأخرج لسانه ، أي يعده بلسانه وأصابعه ، فنفرت العنز ، فعُير بذلك . وفيه يقول الشاعر :

يلومون في حمقه باقلاً كأن الحماقة لم تخلق[1]

---

١ شمس العلوم (الجزء الاول ، القسم الاول (ص ١٧٩) .